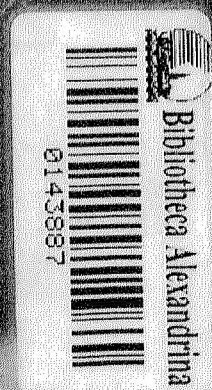


أبحاث كرسية

الضحيرة

المكتبة الثقافية
بيروت



الضحية

أبحاث كريستى

الضحية

تقديم
عشر رب العزى أميين

الملتبة والثقافية
مكتبة - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
(للمكتبة الثقافية)

الطبعة الثانية

الضحية

الفصل الاول

كان الطلبة يسرعون فوق درج الجامعة ، وخلال أبوابها العريضة ، إلى البهو الفسيح حيث يتفرقون جماعات متجهين إلى قاعات المحاضرات المختلفة ، وقد خلا الفناء الخارجي منهم ، عندما قدمت فتاتان في ميمعة الصبا تهرولان في لهفة .. لعلها تأخرتا عن الموعد المقرر ، وإن استاذهما ، رغم دمائه خله ولين جانبه ، لا يطبق البتة أن يحضر أحد طلبته بعد بدء المحاضرة ..

وانطلقتا مبهورتي الأنفاس تجتازان البهو الكبير في خطى سريعة ، قبلت إحداها قاعة المحاضرات التي تقصدها ..

ونغممت في ارتياح :

- شكراً لله ! لقد وصلنا في اللحظة الملائمة ..

ولكنها إذ استدارت لتستحث رفيقتها ..

لم تجدها خلفها ..

بل رأتها وراء جمهرة من الطلبة وغيرهم كانوا يتدافعون إلى إحدى القاعات الأخرى !

فأسرعت عائدة نحوها تهتف بها في صبر نافذ :

- هيا بنا .. الم يكف تأخيراً حق الآن ؟

وكانت صاحبته تقول :

- إنها محاضرة طبية ، ولكفي لا أدري ما الذي يستجلب كل هؤلاء الناس لسماعها ، وبودي أن أعرف سر تهاقنهم عليها ..

فأجابها شاب يرتدي معطفاً أبيض ..

كان يقف على مقربة منها :

- إنها عن « التحليل الطبي لبواعث الجريمة » !

فتحولت إلى صديقتها تشير عليها بأن تدخل لسماعها ، فقالت هذه

مأتردة :

- من المحاضر ؟

ولكن الجواب ضاع بين ضجيج الطلبة داخل القاعة ، وهم يصيحون

طالبين إغلاق الباب !

وعندئذ جذبت الفتاة رفيقتها إلى الداخل حيث كان المدرج مكتظاً

بعدد كبير من الحضور !

جلس معظمهم مسكين بكراساتهم وأقلامهم .. متأهين لتدوين

المذكرات !

فقد تعلقت أبصارهم بالمحاضر ، وهو يقف فوق المنصة ساكناً

رابط الجأش ، ينتظر حق يستتب السكون بين الصفوف ..

وعجبت الفتاة إذ رآته رجلاً غني مقتبل العمر ، أنيق الهندام ،

يضع ربطة عنق زاهية الألوان غير مألوفة في المحيط الجامعي ..

لما عهدت إلا تلك (الأرواب) الجامعية القائمة التي يعلوها الغراب ،

واللحى الموحطة بالشيب ، والعوينات السمبكية ، وهي المظاهر التي يعرف بها أساقذة الجامعات !

ومحضت تسأل من جديد :

- من المحاضر ؟

فأجاب طالب الطب نفسه :

- إنك تعرفينه .. فهو أستاذ جراحة المخ .. ولكنه سوف يلقي الآن محاضرة في علم النفس الجنائي ، الذي نبغ فيه .. ولو كنت مكانك لاستمعت إليه ، فهو محاضر جليل القدر ..

فلم يطل بها التردد ، وما لبثت أن جذبت زميلتها ومضتا تهبطان الدرج حق وجدا مكانا يسمها ..

وما من ريب في أن هذا المحاضر .. الجراح الذائم الصيت ، كان يجتذب عدداً وفيراً من المستمعين ..

فها هي القاعة تمتلئ بالطلبة ، من مختلف الكليات ، ومن جميع الأعمار ..

بل إنها لترى بينهم رجالاً وسيدات لا يمتون إلى الجامعة بصلة ، وإنما قدموا خصيصاً لسماع محاضراته ، وراحوا جميعاً يتطلعون إليه في انتباه وبقظة ، ويتبعونه بنظراتهم وهو يتقدم نحو مقدمة المنصة في تمهل ، وقد وضع يديه في جيبي ردائه ، متفرساً بعينه السوداوين العميقتين في الحضور برهة ..

ثم يبدأ حديثه في يسر واقتدار :

- إن قسمة أعشار الجرائم التي ترتكب في أية أمة متحضرة ،

إنما ترد إلى أشخاص انحرفت عقولهم عن وضمها الطبيعى السليم .. اما للنشأهم في بيئة فاسدة ، واما على أثر اختلال عصبي شديد .. فقليل هو عدد الجرائم التي يرتكبها أناس ولدوا شواذ ، وأقل منهم

أولئك المجرمون الذين تبقى عقلياتهم سليمة كل السلامة بعد ذلك ..
فراخت الفناة في مقدمها وقد راقت لها المحاضرة رغم أنها لا
تفهم شيئاً من تلك المصطلحات الفنية ..

فقد كان صوت الأستاذ المحاضر عميقاً واضح النبرات ، رائع التمج
يستأثر بجماع القلوب ..
وكان قد انطلق في حديثه ، واستغرق في بسط نظريته ، وهو
ينظر الى الحضور دون ان يراهم :

- ولعلكم تذكرون أن « الباعث » الذي اعتزمنا دراسته اليوم
هو « الانتقام » .. فالجرم العادي ، أو بالأحرى السليم العقلية ، انما
يقترن غالباً بهذا النوع من الجرائم ..
فإن الانتقام ، أو الأخذ بالثأر ، يعترف عادة تحت تأثير عاطفة
حارة جياشة ..

ومن ثم ، فإن قوانين بعض الدول تفتقر هذه الجريمة فتعفيها من
العقاب ..

وحق لو ارتكبت في تدبير محكم ، وإصرار سابق ، فإن مرتكبها لا
يعدم من يعطف عليه وبأخذه بالرفق والراقة ..

فإن نظرتنا إلى الحياة والموت ليست إلا وليدة ما اصطلى عليه
العرف والاتفاق ، كسائر تقاليدنا وعاداتنا ..
ولعل الرجل الذي يترك عاطفته وعقيدته تدفمان به إلى الجريمة ،
لا يكون مذنباً في شيء بأكثر من مخالفة هذا العرف ..

وسوف أحدثكم الآن عن رجل من هذا النوع ، وهو رجل متزن
العقل ، سليم الإدراك ، بل هو في الوقت ذاته عضو له قيمته في
المجتمع ..

ولما كنت قد وجدت في مركز يسمح لي بدراسة الرجل والحادث

الذي وقع له أو وقع منه في أدق تفاصيله ، ثم متابعة كل حركة يأتيتها
وكل خطوة تهجس بنفسه ، فلإني لا أرى سبباً يحول دون أن يستفيد
العلم من هذه التجربة التي خبرتها بنفسه ..

ولعل الأفضل أن نطلق عليه إسماً مستعاراً ..
بل سوف نطلق على شخصيات هذه القصة جميعاً أسماء مستعارة ..
فليكن إسمه ..

وقمّل المحاضر قليلاً وهو يلوح بيده كأنما يبحث عن اسم ملائم ،
وما لبث أن ابتسم في وقار ، واستطرد :
- ليكن اسمه جويس .. مايكل جويس ..

الفصل الثاني

كان مايكل جويس متزوجاً ، غير موفق في زواجه ، ويعيش منفصلاً عن زوجته ..

وكان طبيباً يشار اليه بالبنان في الأوساط الطبية ، يملك مستشفى خاصاً في هارلي ستريت ، فتنمو أعماله في نجاح مطرد ، وكلما ازدادت عليه وطأة العمل ازداد سعادة به وارتياحاً اليه ..

فلم يخطر بباله البتة ، وهو في عنفوان شبابه ، وأوج صحته ، وفرة شهرته ومجده ، أن ثمة ما ينقصه في الحياة ..

ولم يكن لفشل زواجه من أثر في نفسه ، وفي المرات القليلة التي يلتقي فيها بزوجته ، كان لقاءهما لا يعدو لقاء أى صديقين لا يسالي أحدهما بشؤون الآخر الخاصة ..

فيكفيه أنه كان قادراً على الانفاق عليها في سعة ، بينما يعيش هو عيشة راضية .

وفيما عدا الخدم الذين يحبونه حباً جماً ، كان يقيم بمفرده ، وانما في غير عزلة ..

فقد كانت له مكانته في المجتمع ، يشترك بنجاح في الحفلات والمكاتب ، ويقضي أمسياته في النادي مع نخبة من أصدقائه المفضلين ..

وكانت له سلبية الرجل المثقف في تذوق الآداب والفنون ، كما كان هاوياً بارعاً في العزف على البيان ، يداعب أوتاره في أوقات فراغه ، وكلما أراد أن يريح أعصابه المكدودة ..

وفياً عدا ذلك كله لم يكن يكلف بشيء قدر كلفه بعمله ومهنته ، فقد كان يحبه إلى درجة التقديس ، حباً خالصاً هو سر نجاحه فيه ذلك النجاح المظرد ..

ولذا لم يدر بخلده قط ، أن حياته الرتيبة المنتظمة يمكن أن تتأثر يوماً من الأيام بأي مؤثر خارجي ..

وفي ذلك الصباح ، وقف مايكل جويس في حجرة الاستشارة الخاصة به ، ينتظر أحد مرضاه ، وقد أمسك بالخطاب الذي تلقاه لشأنه ، وراح بعيد قراءة التقرير المرافق له ..

وما لبثت سكرتيرته - مس مارش - أن فتحت الباب ودخلت الحجرة ، تتقدم إحدى السيدات ومعها فتاة صغيرة .. وقدر في نفسه أنها لا تتجاوز الاثني عشر عاماً ، فقدمت السيدة قائلة في صوت خافت :

- مسز رايت ..

فصافحها الطبيب قائلاً في بشاشة :

- كيف حالك يا مسز رايت ؟

ثم التفت إلى الفتاة ذات الساقين النحيلتين ، التي كانت تنظر اليه بعينين زرقاوين جيلتين ، في نظرات جامدة لا حياة فيها .. - أهذه ابنتك ؟

- نعم .. هذه هي آن .. وقد كتبت لك عنها .

فابتسم للفتاة مشجعاً وطلب اليها أن تجلس .. ثم أجاب أمها :

- نعم .. لقد قرأت التقارير التي أرسلتها لي ..
واقترع من الفئسة وراح يفرق خصلات شعرها الكستنائي الطويل
الذي كان ينسدل على ظهرها !!
- ومضى يفحص جرحاً قديماً بأعلى الجبهة ..
وما عثم أن سألها :
- أحسب أنها كانت جراحة عاجلة إثر غارة جوية ؟
- نعم ..
- وتشعرين الآن بضعف في البصر ؟
فقالت أمها :
- لقد ذكر أخصائي العيون أنها حالة ليست من اختصاصه ، ولا
يستطيع معها شيئاً .
فترك شعر الفتاة ينساب من بين أصابعه ..
وسألها :
- هل يمكنك أن تقرئي ؟
- كلا .. فلست أرى الكتابة جيداً ..
فنظر إليها في إمعان ، قبل أن يغمغم ..
كأنما يتحدث نفسه :
- إن أمامي تقرير أخصائي العيون ، الذي يقول فيه أنها حالة
« اضمحلال مطرد لحاسة البصر دون سبب ظاهر » .
ثم تحول نحو الأم الشاحبة الوجه المقطبة الأسارير ..
وأردف :
- إنها حالة خطيرة يا مسز رايت .. ولا أرى إلا أن نأخذها إلى
المستشفى ، فنجري عليها فحصاً دقيقاً لنتبين السبب الحقيقي لهذه العلة ..
هل يسووك ذلك يا آن ؟

فشعب وجه الفتاة قليلاً ..

ولكنها أجابت في شجاعة :

- كلا البتة !

وقالت مسر رايت :

- هل تريد أن نبدأ من الان ؟

- اظن ذلك ضرورياً .. فلسنا نود ان يزداد ضعف نظرها حتى لا

ينفع فيه علاج ..

ثم اخرج جهرأ لفحص البصر وراح يفحص عيني الفتاة وهو يتحدث اليها في رفق ودعة ..

حتى إذا ما فرغ من فحصه ، واقتنع بالرأي الذي كونه لنفسه ،
اتفق مع مسر رايت على ان تدخل المستشفى للتو .

ثم ابتسم لها مطمئناً وهي تبارح الحجرة .. بعد ان رأى في
عينيها لغة من التوسل والضراعة لم تحتاج نبرات صوتها مرة واحدة خلال
حديثها معه ..

واجوبت على أن اختبارات عديدة كانت تخضع لها في طاعة
واستسلام ، حتى اثارت إعجاب مايكل جويس ، إذ رأى فيها طفلة حسن
خلقها واجيدت قلشنتها .

غير مدللة او ميالة للثرثرة ..

وكانت امها تجلس يوماً بعد يوم في هدوء ورباطة جأش فنلتظر
نتيجة هذه الأبحاث دون ان تدع للهفة التي تجيش في نفسها ان تبدو
في كلمة او إيماة واحدة ..

فلم يكن مايكل جويس في ذلك الحين يشعر بأثر في نفسه تجاه (إيما
رايت) اكثر من انها سيدة وافرة الذكاء بادية الحسن ، وام كأحسن ما
تكون الأمهات ..

وأظهر فمهم الأشعة وجود جسم غريب دقيق الحجم مستقراً
فوق عصب البصر ..

فأطلع مايكل جويس مسز رايت على الصورة ، ثم بين لها ضرورة
إجراء جراحة معينة بالمخ لرفع ذلك الجسم الغريب وإزالة الضغط عن
العصب حتى يمكن انقاذ بصر الفتاة ..

فريعت قليلاً ..

ثم سألته :

- أمي شديدة الخطورة ، تلك الجراحة ؟

- هناك دائماً بعض الخطر في الجراحات الكبرى ..

- وما مدى هذا الخطر يا دكتور ؟

- إن نسبة الوفاة في مثل هذه الجراحة بالذات تبلغ واحد
في المائة ..

فتلفتت حواليتها في حيرة .. وبدأ عليها الألم والاسى ..
وغنمت :

- وإذا لم تجر لها هذه الجراحة ؟

وأدرك الطبيب أن الصراحة أولى وأجدى مع امرأة من هذا الطراز ،
ليست في حاجة إلى المبارات التقليدية الجوفاء التي تقال لبث الطمأنينة
في النفوس ، فهي رابطة الجأش قوية الأعصاب ..
فأجاب في أسف :

- سوف تفقد البصر حتماً ..

فراحت تعصر يديها في أسى ، وما لبثت أن غنمت في نبرات تبث
على الرقعة :

- رباه ! ليتني أعرف ماذا ينبغي عمله ! لو أن فيليب عاد من
رحلته . لكان أقدر مني على تقرير ما يجب صنعه الآن ..

- إن كل أسبوع يمر يزيد الحالة سوءاً .
- أعلم ذلك ، ولا ريب أنك على حق .. ولكن هل تظن أنها ..
وقملت قليلاً كأنما لا تريد أن تشي كلماتها بالخوف الذي انتابها ..
ثم أردفت :
- أعني أنها لن تكون ضمن الواحد في المائة ؟
فأراد أن ينفث فيها من ثقته بنفسه ..
وأجاب :
- إن الأمر لا يستحق التردد يا مسز رايت ، فستنجح العملية
فتنجو ابنتك من خطرهما .. ويمكنك أن تثقي بي ..
فقطعت إليه بعينها الصافيتي الزرقاء ، تحارل أن تستشف من نظراته
مدى قوته وقدرته .. وكأنما ارتاحت إلى النتيجة . فارتسمت على شفتيها
ابتسامة شاحبة وقالت :
- حسناً .. سوف أفعل ما توصي به ..
وعندئذ قال في إيجاز :
- الأفضل إذن أن نترك آن في المستشفى حيث هي الآن ، في
راحة كاملة ، وسوف أجري لها الجراحة عندما يحين الوقت الملائم ..
وفيا كان يفتح لها الباب مودعاً أمسك بيدها لحظة .. وهو
يفهمهم :
- لك أن تطمئني تماماً يا مسز رايت ..
فأجابت إيماناً :
- إنني مطمئنة ..
وكان بعد ذلك يرى آن في المستشفى كل يوم ، ويرى معها إيماناً
رايت دوماً ..
وعلم أن زوجها من المشتغلين بعلم طبقات الأرض ، ويمارس عمله في

الخارج معظم الوقت ..
 وكانت إيماناً خلال غيبته تركز عواطفها جميعاً في ابنتها الوحيدة التي
 تحبها إلى درجة العبادة ..
 وظالماً رأى مايكل جويس في عينيها الصافيتين الطاهرتين دلائل
 ذلك الحب المتجرد من الآفة الذي تضفيه على ابنتها الصغيرة .
 ودعا اليوم المحدد لإجراء العملية الجراحية ..
 فوقف مايكل جويس وإيماناً ينظران إلى الجسم النحيل الراقدين بين أغطية
 الفراش الناصعة البياض ..
 وما لبث أن أخبر الفتاة في كثير من الرفق أنهم سيضطرون إلى
 قص شعرها الطويل ..
 فهتفت في لوعة :
 - آه ! أرجوك يا دكتور .. سوف يكون منظرى بشعاً .
 فقالت إيماناً مبتسمة لها :
 - كلا يا آن .. سوف ينمو سريعاً فتتموج خصلاته ويزداد حسناً
 وجسلاً ..
 وعلى الرغم من عزم الفتاة وإصرارها على أن تبدو شجاعة غسيرة
 هيابة ، فقد فر لونها ، فنبدت في عياها مسحة من التوجس والخوف .
 فقال مايكل في دعة :
 - ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف والرهبة يا آن ، سوف نعطيك شيئاً
 لطيفاً يملك تستغرقين في نوم عميق ، حق إذا ما استيقظت كان كل
 شيء قد انتهى .. بل أنك لن تشعرين حتى بصداخ خفيف ، وبعد ذلك
 تستعدين بصرك وتمرين كل شيء في وضوح ..
 ثم تحول يلقي التلميحات إلى الممرضة التي ترافقه ، وهو يهيم بالخروج ،
 على حين ربت إيماناً على يد طفلتها في حرارة ، وانثلت تتيبه ، ولكن

آن تشبثت بيدها في ذعر طاغ ..
 فراحت تهدىء روعها قائلة :
 - سوف يعني بك مصائر جويس عناية بالغة ..
 الا أن الفتاة غمغمت في ضراعة مؤثرة .
 - لا تتركيني يا أماء !
 فاستدار مايكل نحوهما قائلاً :
 - ما رأيك في أن تبقى والدتك معك حتى تستغربي في النوم ؟
 - وهل يمكنها أن تظل معي حتى أفيق ؟
 - في وسعها أن تلبث معك طول الوقت اذا شئت ..
 فتهدج صوت الفتاة جذلاً اذ قالت :
 - نعم يا أماء .. أرجوك !
 بيد أن ايما ترددت قليلاً ، وقد لاحت ليمينيها فجأة صورة مروعة لا يبتها
 فوق منضدة العمليات ..
 ثم غمغمت :
 - سوف أنتظر في البهو يا عزيزتي ..
 - كلا .. كلا .. بل ستبقين معي .. فقد قال مسر جويس ان ذلك في
 استطاعتك !
 - حسناً يا عزيزتي .. سأظل معك كما تشائين ..
 فخرج مايكل وتركها وحدها بعد ان قال :
 - سوف اراك بعد قليل يا آن ..
 ولحقت به ايما في الردهة لتسأله ان كان وجودها في حجرة العمليات
 سيضايقه ..
 فخالجه شعور بالشفقة حيالها ، اذ رأى امتناع وجهها ، ودلائل الذعر
 والقلق المرتسمه عليه ..

ولكنه قال في اقتضاب :
- انك لن تأتي الى حجرة العمليات ، فقد قلت ذلك لأبعث السرور
والقوة في نفسها فقط ..

فتطلعت اليه اياما في دهشة ونفور ، وقالت :
- هل تعني انني لا استطيع الدخول :
- كلا البتة .. فهذا محال !
- ولكنني وعدتها !
- انها لن تعلم شيئا عن هذا متى غابت عن الصواب بتأثير المخدر .
- ليس هذا هو المهم ، انما المهم انني وعدتها بملازمتها ، واذا تبينت فيما
بعد انني لم اعد بها بذلك الا على سبيل التشجيع واني كنت اخادعها ، فلن
تصدقني بعد ذلك في شيء ..

- الا انها لن تتبين ذلك البتة ، فلماذا تزعمين نفسك بهذه الخواطر ؟
ثم قادها الى قاعة الانتظار ، حيث اجلسها في مقعد وثير .. ومضى
لشأنه ..

وفي الضوء الباهر والحرارة القاسية ، كانت آن ترقد امامه على منضدة
العمليات ، لا تلك الطفلة القلقة المتوجسة ، وانما جسم صغير ساج لا يبدو من
الأغطية البيضاء التي تحيط به سوى أعلا الجبهة ..
وكان يقف حوله مساعده وطبيب التخدير والمرضات على استعداد
لاطاعة أقل حركة تبدر منه ، وقد ارتدوا جميعا ثيابا من اعلا الرأس الى
أخص القدم .. ووضعوا فوق وجوههم قناعات كثيفة لا تبدو منها سوى
عيونهم وهي تتبع يدي الجراح في اهتمام بالغ ..

ولم يكن يسمع في الحجرة غير أنفاس الفتاة المترددة في انتظام ، وغير
حفيف ثياب الممرضة وهي تناول الطبيب أداة بعد أخرى ، فيديرها بين
أنامله في حركات ثابتة ، يقودها العلم والمقدرة من وراء عينيه الحادثتين المركبتين

فيا أمامه .

فلما ثبتت الضمادات الأخيرة حول الرأس بشابك خاصة ، ورفعت الأغشية عن وجه الفتاة ، قبدا خلوا من قناع التخدير ، خطسا الطبيب خطوة إلى الوراء إيداناً بانتهاء الجراحة ، وقد شعر فجأة بالثعب يثقل كتفيه ..

ولكنه كان يعلم أنه قد نجح ، وأنه قام بجراحة بارعة فذة ، لا مضاعفات أو تعقيدات فيها ..
فقد بذل غاية جهده ، وكلل عمله بالنجاح ، ونجت آن من الخطر .

الفصل الثالث

ما أن خلع مايكل جويس أزار الجراح وقلنسوته وقناعه ولبس ثوبه العادي ، حق أسرع إلى الحجرة التي كانت إيما رايت تنتظره فيها .. فلم يتعبه عند دخوله إلى وجود سيدة أخرى مضطجعة في مقعد كبير يحوار المدفأة ، إذ اتجهت أنظاره مباشرة إلى إيما وهي تجلس على حافة المقعد في تحفز ولطفة ..

فما كادت تراه حق وثبت على قدميهما في عصبية شديدة ، ووقفت أمامه جامدة شاحبة الوجه كالأموات ..

فهمتم :

— حسناً .. لقد انتهى كل شيء يا مسز رايت !

فهمت في صوت حاد متهدج :

— انتهى كل شيء ؟ ماذا تعني بالله ؟

— لقد تمت العملية على خير وجه ..

فظلت تمدق النظر في وجهه كأنها لا تفهم ما يقوله ! ولكنها ما أن استوعبت كلامه حق انثابتها رعدة شديدة وارتجفت شفتاهما ..

ثم انهمرت دموعها !

فتقدم مايكل نحوها ، وراح يربت على كتفها مهدئا وهو يغمغم
في رقة :

- إن كل شيء على ما يرام الآن !

فأخذت تجاهد في سبيل استعادة هديرها ..
وما لبثت أن قالت :

- آه ! إني آسفة ، ولكنهما دموع الفرع .. فقد غبت مدة طويلة ،
وظننت .. ظننت !

واحتبس صوتها ثانية ، ولكنها سرعان ما كفكت دموعها وابتمت
وهي تردف ..

كأنما تمتذر عن مسلكها :

- ما أشقى المرء إذا كان شديد الكلف بشخص ما ؟

وعندئذ انبعثت المرأة الجالسة يحوار المدفأة تقول فجأة في صوت
حاد :

- يجب أن تتجلدي يا عزيزتي .. فقد قال الدكتور انها على
ما يرام !

- نعم .. أعرف ذلك !

ثم تحوالت اليه لتسأله في لهفة :

- هل أستطيع أن أراها الآن ؟

- سوف تفيق من أثر الخدر بعد قليل ، إلا اني أود أن ندعها في راحة
تامة !

- إنني لن أزعجها يا دكتور .. ولكني سوف أكون أحسن حالا
إذا رأيتها !

وعندئذ وقفت المرأة الأخرى قائلة في صبر نافذ :

- لا تكوني حمقاء يا إيماء .. هيا بنا ، فما ينبغي أن نبقي طويلا بعد أن

علمنا أنها بخير !

فنظرت اليها إيما .. في عجب !

ثم ابتسمت وقالت معتذرة :

- آه ! هذه أخت زوجي ، مسز هوارد .. وهذا دكتور جويس !
فتبادلا تحية التعارف في غير اكترات وبلمحة فائرة شبه رسمية ، ومايكل
جويس لا يعيرها اهتماماً حتى لكأنه لا يحس وجودها ..
كان سعيداً اذ استطاع أن يهب إيما رايت الطمأنينة والسعادة ، وكان
شعوره هذا منبعثاً من أحماق القلب ، كشعور صاحب المهنة إذا صادف
نجاحاً وتوفيقاً في عمله ..

ولكنه لم يحمله وقتئذ أو يعرف كنهه !
وأجريت في الأيام التالية اختبارات عديدة على الطفلة وهي راقدة في
فراشها ، ووجهها أبيض فاصع كالضفادات التي تحيط برأسها !
وفي تلك الأيام كان اليأس يعاود إيما وهي ترى ابنتها فيما يشبه الذهول
عما حولها ..
ولكن مايكل كان لا يفتأ يطمئنها ويمنعها بأن الفتاة تتقدم نحو
الشفاء !

فقلت ذلك فترة من الانتظار الطويل واللمعة الجارفة ، كانا ينتظران
حتى يتبيننا أثر الجراحة على بصر للطفلة ..
وقد أثت لحظات تناوبها وفيها الخوف والجزع خشية أن تكون
آن قد فقدت البصر تماماً ..

لحظات كان فيها مايكل جويس نفسه يكاد يشك في قدرته وثقته
بنتيجة عمله !
ولكن نظرها بدأ يقوى تدريجياً ، وبدأت تميز الأشياء التي حولها ، كما
عاودتها ضحكاتها المرحية الرقانة ..

وكانت تجلس ذات مساء في فراشها ، والدتها يجانبتها ، عندما راحت
تقرأ له في كتاب القصص بصوت عال ..

ثم رفعت عينيها عن الكتاب ، في انتصار وسرور ، وطلبت اليه
ان يمسك به بعيداً عنها ، عند الطرف الآخر من الفراش ، وما لبثت أن
قالت ضاحكة :

- أرايت ؟ انني أستطيع القراءة حتى وهو في هذا الوضع .
فبادلها الضحك في مرح وزهو ، والقى بالكتاب على الفراش
وهو يقول :

- أرايت ؟ ألم أقل لك ذلك ؟

ولقد ظل مايكل جويس وإيما رايت يلتقيان كل يوم مدة طويلة ،
ويتقاسمان الأمل واليأس ، والقلق واللفة نحو سلامة آن وعودة بصرها ،
كان يجمعها شعور واحد ، وتراودهما خواطر واحدة ، ويخفق قلباهما
بوجيب مماثل .

وما هما الآن يتقاسمان نشوة النجاح وتسري في عروقها هزة
الفرح والهناء ..

وكانت إيما جد شاكراً له إذ رد إلى ابنتها. بصرها ، على حين وجد
مايكل نفسه يزداد اهتماماً بها يوماً بعد يوم ، خصوصاً عندما أخذت آن
تدرج نحو الشفاء ، إذ فارق إيما جهودها وتحفظها . وبدأت تظهر على
طبيعتها المرحمة معه ، فيتبين سحرها الهادي وقتلتها التي لا يشوبها
التكلف ، أو تشيرها رغبة الأغراء ..

وحل أخيراً ذلك اليوم الذي كان مايكل يتوقعه ويخشاه ..
يوم زيارتها الأخيرة له ، قبل أن تعود إيما بابنتها إلى منزلها
بالريف ..

وكانت آن واقفة بجانبها في الردهة ، ورأسها يداني كتف أمها ،

عندما قالت إيمان :
- لقد ذهبت وآت إلى السينا في الليلة الماضية .. فكانت أول
مرة منذ عام !

وأردفت الفتاة في جدل :
- لقد كانت بالألوان الطبيعية ..
فقلت ذلك فترة من الصمت ..
كأنما لا يجد أحد منهم ما يقوله ، حتى واجهته إيمان أخيراً مبتسمة
ابتسامة مقتنصة . قائلة :

- حسناً .. لست أحسب أننا سنراك بعد ذلك يا دكتور ..
فقال في حرارة :
- بل أرجو أن تفعل !
وما كاد يقولها حتى أحس بها في هذا الرجاء من حقيقة ، فقد كانت
أمنية منبعثة من أعماق قلبه !

فأجابته إيمان في صدق وإخلاص :
- واني لأرجو ذلك بالمثل ..
ثم فتح الباب الخارجي في ببطء ، فتنحى عنه حتى خرجت ، وهو
يشعر أنه يفقد شيئاً ما ..
شيئاً ثميناً لا يدرك كنهه تماماً !
ونظرت آن إلى الطريق ..

ثم هتفت :
- أنظري يا أماء ! لقد طلعت الشمس من جديد !
- سوف تذهب إلى المنتزه إذا . أيروق لك ذلك ؟
ولكن آن كانت قد خرجت ومضت تتراقص فوق الدرج ..
فدحوات إيمان نحوه ومدت إليه يدها ، وهي تشعر بشيء من الحزن

لفراق هذا الرجل الذي جلب لها كل هذه السعادة ، والذي كان جزءاً من حياتها طوال المشهور الماضية .

وغمغمت :

— وداعاً يا دكتور ا

فأمسك بيدها ، ومضى يتأمل ذلك الوجه الرقيق الطاهر لحظة ..

ثم قال :

— أنت ذاهبة الى الحديقة حقاً ؟

فسألته في دهشة :

— نعم .. لماذا ؟

— هل لي أن أرافقك ؟

— طبعاً .. بلا ريب ا

فخيل اليه أن نبراتها تشف عن الابتهاج والسرور . فتناول معطاه من المشجب يحوار الباب .

فراحت تعاونه في ارتدائه وهي تقول :

— ألا تخبر أحداً بخروجك ؟

— سوف أخبرهم عند عودتي ا

وكان يشعر شعور الغلام الذي يفر من مدرسته ، فلم يفعل قط من قبل شيئاً كهذا ، لا يبت بصلة الى مهنته ا

فتترك عمله بعد الظهر لا شيء سوى النزهة في حديقة عامة مع بنت صغيرة .

وكان يوماً صافياً من ايام الشتاء الأخيرة ، وقد أشرب الجو بدفء يسير ، وسرت في المسيم روعة من روحات الربيع ..

وكأنما واقت الفكرة ذاتها سائر الناس ، فامتثلت بهم ممرات (هايد بارك) .. انها وايم الحق فكرة سديدة ، فيما يرى مايكل ..

وكانت آن تمدو فوق العشب ، وتدور حول القوارب التي تملأ البحيرة ،
على حين كان مايكل يسير مع امها ، يتحدث ويضحك كأنما ليس في العالم
سواء وسواها ..

وكانت تتحدث عن عمله ، وعن نفسها ، في مرح طبيعى ، وفي غير
تسكف او تحفظ .

ومع ذلك ، فلم يكن في نبراتها ، اي اثر للخلاعة او الاغراء ..

وكان مايكل يتأملها وهي تخطر في خفة ، بمظهرها الأسود البسيط ،
وتسمرها الكستنائي الهفاف الذي يعبت به النسيم ، وبشرتها المتوردة
الرضاءة ، وفها الجليل الذي يكاد يتجرد من الطلاء وقد راح يبتسم له ،
ولأن ..

وللدنيا بأمرها ..

وكان في تلك المرأة شيء أثر في مايكل جويس كل التأثير ، وسعوره
اروع السحر !

صفة قلما صادفها من قبل ، وكأنف اليوم في ذروة جلالها ، فقد علمت
للتو أن زوجها سيمود من الخارج ، ولم تكن تراه في الآونة الأخيرة سوى
شهرين من كل عام .. أما الآن ، فقد تخلى عن عمله في الخارج ليبقى
معها دوماً .. وكان ذلك ما أثار سرورها واشاع المرح والنشوة في
اعطافها ..

وكان ينبغي ان يودع احدهما الآخر عندئذ ، ويفترقا الى غير لقاء ، بعد
ان بلغت صلتها نهايتها الطبيعية ..

صلة الطبيب بأهل المريض الذي تم شفاؤه !
ولكنهما لم يفصلا ..

فعندما قدمت الى لندن ثانية ، التقيا مرة اخرى ، فتعددا لقاءهما ،
وتقاربت فتراتهما ، واستطالت جلساته ، وتبينتا ان لهما ميولا واحدة ، اذ

كانت تشاطره شغفه بالموسيقى والفنون ..
ودعاها مرة الى الذهاب الى قاعة الموسيقى في صحبته .
فاستجابت لدعوته ..

وكان يحس بها بجانبه ، وقد استحوذت الموسيقى على لبها !
وظل يرقب تلك الظاهرة الغريبة التي تلازمها ، اذ يتحول لون عينيها
من زرقه صافية الى زرقه قاتمة ، كلما تأثرت او أثرت ..
وعندما اخذا بتناول العشاء ، ظل يستمع في غبطة وجذل الى آرائها
الناضجة ، سواء اكان الحديث عن الكتب ، ام المسرح ، ام الموسيقى ..
ورأى حساسيتها السريعة ، وحسبها الغريزي ، واستجابتها لكل ما هو
جميل رقيق !

وكان يعلم انها « سيدة » بكل ما في هذه الكلمة التقليدية من معان ،
رقيقة حانية ، لا تعرف الخوف او الرهبة ، تجردت نفسها بما يشين ،
وعندئذ بدأ مايكل جويس يدرك مبلغ ما فاته وخسره في اعوام العزوبة
والعمل المضني الماضية .

فلما انتهت الحفلة صحبها في سيارته الى منزلها بالريف ، وهو يبعد عن
المدينة زهاء ثلاثين ميلا او اربعين ، وكان الطريق المقفر يمتد وسط حجب
من الظلمة الحالكة ..
فقالتمتذرة :

-- انني احس بذنبي اذ كبدتك كل هذه المشقة وتركتك تقضي بي هذه
المرحلة الكبيرة ، وكان يحذر بي ان امضي الليلة في المدينة لولا انني اكره
ان ابرك آن وحدها .

- ينبغي ان نقضي امسية اخرى معا !
فأجابت في بساطة وطهارة :
- كم يسرني ذلك ..

فتفريس فيما حوله برهة ..

ثم قال :

- لا ريب اننا على مقربة من المنزل ، فهلا ارشدتني ؟

فانحنى فوق النافذة لتأمل ما حولهما ، وكان القمر مقنعاً بنجمار من السحب ، والظلام من الكثافة بحيث تكاد تلمسه بيدها ..
واخيراً قالت :

- احسبني اعرف اين نحن الان .. افتظر لحظة ، حتى اري ذلك السياج ..

فأبطأ من سرعة السيارة ، على حين ظلت إيما تتفريس في الظلام حتى قالت :

- آه .. نعم .. هذا هو المعبد ..

- أي معبد ؟

- إنني أراه دائماً من نافذة مخدعي ..

ثم تضاحكة وأردفت :

- وكم من منازعات عائلية ثارت بسببه ..

- ولماذا ؟

- أمض بالسيارة قليلاً حتى أريك إياه .. فلن يستغرق ذلك منا زمناً طويلاً !

وأوقف السيارة على مائة ياردة ، حيث ترجلا .

فإذا على جانب الطريق إلى الداخل معبد صغير من الحجر ، ينهض وحده بين الحقول ، وضوء القمر يضيء بياضاً ساطعاً على جدرانها القمامة ..

فضلا ينظران إلى داخله برهة خلال نافذة ضيقة من الزجاج المعتم ..
وأخيراً استدارت إيما ووقفت مستندة بظهرها إلى الباب الثقيل

المصنوع من خشب البلوط والذي تعلوه قبوة مدببة على الطراز القوطي ،
على حين راحت تلمس أحجاره يديها فيما يشبه الحنان .

وهي تقول :

- عندما تهب الرياح الى فاحيتنا ، فإننا نسمعها كأنها تفتي .. ومـ
أحب ذلك . فإن الصوت يتغلغل المعبد ويخرج من الناحية الأخرى
كأنغام الأرغن !

وارتعدت قليلا ..

ثم تابعت القول :

- انني لا أعلم الحقيقة ، ولكن هذه الأصوات تشيع في النفس
شعوراً بالروعة والراحة .. غير أن بعض الناس يفتونها .. وكانت
كأت قبل أن تزوج لا تفتأ تحاول دائماً أن تقنع فيليب - زوجي -
ببيع المنزل .. فلما قتل زوجها ، وعادت للإقامة هنا ثانية بدأت تعاود
الكرة وتثير المنازعات من جديد ، وهي تقول دائماً أن (كلاي) يعزف
على الأرغن في أنغام كأنين الأبالسة !

وكان وهو يرقبها في ثوبها الطويل المحتشم ، ويرقب حركات يديها
الرقيقتين البيضاءين ، لا يكاد يفقه شيئاً مما تقوله ..
كانه لا يشعر بشيء سوى السعادة التي تغمره في نظرائها ، وفي
رنين صوتها ..

ولكنه قال :

- من هو كلاي ؟

فأجابت إيما :

- انه البستاني فهو يعزف على الأرغن ، وتود كأت أن نطرده
لهذا السبب !

فسألها مايكل :

— لماذا ؟ هل يؤثر عزفه على عمله في الحديقة ؟

وضمكاً معاً ، وهي تجيب :

— كلا .. ولكن كات تعتقد أنه اذا ترك العمل اضطر الى الرحيل الى جهة أخرى وبذلك لا يكون هناك من يعزف على الأرغن ، وبذلك تكف الأصوات الرهيبة التي تنبعث من المعبد .

فقال الطبيب :

— ومن هي كات ..

فقالت ايماء :

— انها شقيقة زوجي ، وقد قابلتها في المستشفى ذات يوم ..

— حقاً ؟

وذكر في غموض تلك المرأة التي كانت مع ايماء في قاعة الانتظار عندما أقبل ليخبرها بنجاح العملية ..

على حين استقرت عيناهما في التفكير ..

ثم قالت في بطله :

— انك لا تذكر حتى الناس الذين تقابلهم ، ليس ذلك مما يدعو

الى التفكير ؟

فصمد لنظراتها الصارمة ، وقال :

— اني أذكر من كانت لهم أهمية خاصة .. أولئك الذين أحب أن

أذكرهم ..

وراحت تبعد عن المعبد ، وتهبط الدرج ، ثم تسير نحو الطريق ،

وهو يتبعها ..

فلما وقفا بجوار السيارة ، أشارت الى بقعة قساعة على بعد يسير منها

وقالت في غير اكتراث :

— هذا هو منزلنا ..

- أهو حقاً ؟

وظلت صامتة ، دون ان يهم أحدهما بدخول السيارة ، وبغثة تنفست في صوت مسموع !

ثم قالت في حياء :

- هناك شيء أردت ان أسألك عنه طول المساء ..

- وما هو ؟

فترددت قليلاً قبل ان تجيب :

- انه .. حسناً .. هل أنت مطلق ؟

فرد مايكل :

- كلا .. فإن ديانا لا تريد الطلاق ، لماذا تسألين هذا السؤال ؟

فأجابت إيما :

- لقد كنت أتساءل عن حقيقة موقفك ، وهذا كل ما في الأمر !

وكأنما خانها صوتها فكفت عن متابعة الحديث ، وما لبثت ان أبدت الموضوع في ابتسامة سريعة ، قائلة :

- لا ريب أن الوقت متأخر تماماً ، وينبغي ان نعود ادراجنا !

وودعها مايكل جويس عند الممر المؤدي الى المنزل ، دون ان يفكر في مرافقتها الى الباب ..

وقد افترقا في غير احتفاء ، فراقاً جامداً فاتراً ، بعد ان أزجت إليه إيما الشكر على الأمسية التي قضتها معه ..

* * *

واتصل بها في اليوم التالي ليسألها ان كان يستطيع لقاءها قريباً ..

وذكر لها ان في وسعه تنظيم مواعيده حتى ثلاثها ، فليس عليها الا ان تخبره بالموعد الذي ستكون فيه في المدينة فيدبر الأمر بحيث يكون خلواً من العمل ..

واحتجت ايما بان ذلك قد يتعارض مع عمله ومصالحه ، ولكن مايكل جويس كان يحس بان العمل لم يعد له المقام الأول في نفسه كما كان من قبل ، وانما لا يهمه الآن ولا يشغل عليه خاطره الا ان يستطيع لقاء ايما باستمرار .

والقى نفسه يفكر فيها كل ساعة وكل لحظة من اليوم ..

فمويصور لنفسه ضعكتها المرجة السريعة ، عندما يقص عليها حادثاً طريفاً صادفه في عمله بالمستشفى ا

وكان إذا أقلقه أمر أحد مرضاه ، راح يبشها قلقه .. كان يطمئنها على مطامعه ، وآماله ، ولا يكتف عنها مواجسه ومتاعبه ا

كان عهده دائماً متحفظاً ، منطوياً على نفسه ، لم يخرج منه عن طبيعته هذه انسان آخر قط من قبل ..

لكنه انقلب معها ثقالاً لا يكتف سراً ..

وكان كلما أضناه قضاء ساعات برمتها مع مريضاته المحقاوات ، ول وجهه شطرها فوجد الراحة معها ، كأنما يستمد القوة من حيوياتها ، كان كل يوم يمر بهما يزيد رابطتهما قوتاً .

وكانت كل خلة يكتشفها فيها تضفي قوة على التفاهم والانسجام المتبادلين بينهما .

وكانت إيما ، مع غياب زوجها أكبر جزء من العام ، تكاد تعيش في عزلة بمنزلها الريفي مع آن ..

فكان من الطبيعي أن تسر لصحبة هذا الرجل الذكي المثقف ، الذي تشاطره الميول والنوازع ..

ولقد اعترفت في قرارة نفسها أن من بواحت القبطة أن تذهب في رفقة رجل مثله إلى المسارح والمراقص !

وكانت تجدد البهجة في حديثه البارح ، وسعة اطلاعه ولباقته ..
كانت تعرف ذلك كله ..
وتعترف به !

ولكن الذي لم تتبينه في بادئ الأمر ، هو إن انعطاف قلبها نحوه إنما يرجع إلى جاذبيته الشخصية ، تلك الجاذبية التي لا علاقة لها بثقافته وسعة اطلاعه ..

وكان كلامها يدرك في أعماق نفسه حقيقة ما يحدث لهما .
كان كلامها متزوجاً ..

وكان كلامها يعلم حق العلم ما ستؤدي اليه صداقتها الوثيقة البريئة حتماً ،
ومع ذلك فقد تركا الأمور تجري في مجراها ..

ومع مرور الزمن اتخذت إيماناً عادة الحضور إلى منزلهما كلما أقبلت إلى المدينة لتتبع ..

وكاذا يلتقيان لقاء عادياً ..

ولكن كلا منهما كان يشعر شعوراً قوياً بمكانة الآخر في نفسه ، كما
سمعين كل السعادة كلما اجتمعا كرفيقين مخلصين ، وكاذا يحاولان اقناع
نفسهما بأن ذلك كل شيء !

* * *

وعندئذ حان ذلك اليوم الذي لم يعد في وسعها التصنع والكتمان
طويلاً ..

فقد ترك مايكل جويس حجرة الاستشارة منهوك القوى ، ومضى إلى

حجرة الاستقبال ..

فما كاد يبلغ بابها حتى وقف مكانه ، إذ كانت إيماناً هناك ، جالسة
يحوار الحاكي .

كانت عارية الرأس بلا قبعة ، ترتدي ثوباً بسيطاً أزرق اللون ، وهي
تصفي في غبطة إلى الأنغام المنبعثة من الحاكي ..

فظل برهة يرقبها ، ويصفي بدوره ..

لم تكن موسيقى « باخ » التي يجانها أكثر من غيرها ، وإنما كانت أنغاماً
رقيقة تشف نبراتهما عن طفولة ، فتردد قليلاً وهو في عجب من أمر هذه
الاسطوانة ، عندما سمع الأنغام تخفت فجأة ، ثم صوت آن ينبعث منها
واضحاً بهذه العبارة :

« يا للجنة سوف أبداً من جديد » ..

فولج الحجرة وهو يقول :

- شدا ما يؤسفني ان تركتك تنتظرين ، فقد كنت مثقلاً بالمواعيد .

فأسرعت توقف الحاكي ، وقد تألفت عنانها بالسرور للقياء ،

وهي تقول :

- لا شيء في ذلك البتة ، فقد أعددت لك مفاجأة ظريفة ..

فقال ما يكل :

- وما هي ؟

وكانت منهمكة في استبدال الابرة ، وهي تجيب :

- إنما اسطوانة من غناء آن .. وهي من الاقنان بحيث تحسبها

من عازف محترف .. وقد ملأها بأغنية : سيدتي هل لك أن

تسيري ؟

أصغى إلى موسيقى الافتتاح ..

ثم قال في اعجاب :

- حسن جداً ، هل هي آن حقيقة ؟

فأجابت إيماء :

- طبعاً هي !

- إنه عمل المحترفين ..

فأشارت اليه لبصمت قائلة :

- صه .. ينبغي أن تصغي !

وكانت تختال زهواً ، وعيناها تلحمان في غبطة ، وقد تركز انتباهها في الأغنية ..

وتلت ذلك فترة صمت الموسيقى ..

ثم صوت آن في خفوت :

- يا للجنة ! سوف أبدأ من جديد ..

وبدأت الموسيقى مرة أخرى ، بينما كان مايكل يقهقه بصوت عال ،

وإيماء تنظر حواليتها في قلق وخزي ..

ثم قالت كأنما تعتذر عن طفلتها :

- هذا هو الخطأ ، فقد كان ينبغي أن تستمر ، ولكننا سنملاً اسطوانة

أخرى بالأغنية كلها ..

وفي تلك اللحظة انتهت الموسيقى في أنغام بطيئة متعثرة ، اعطىها صوت

آن وهي تقول :

- انني شديدة الأسف ..

وتجاهلت إيماء ضحكات مايكل ..

ثم مضت إلى المعزف وهي تردف :

- إنها تجيد عزفها حقاً ، ولكن الخطأ حدث هنا !

وراحت تجري أصابعها على المعزف في مهارة رائعة ..

فتناول الاسطوانة ، ووقف يرمقها من بعد .. وكان يعرف الأغنية

بلا شك ..

« سيدتي ، هل لك أن تسيري ؟ »

« سيدتي هل لك أن تتحدثي ؟ »

« سيدتي هل لك أن تسيري معي وتتحدثي الي ؟ »

« سوف أهبك مفاتيح قلبي ، حتى لا نفترق نحن الاثنين قط .. »

« سيدتي ، هل لك .. »

وكانت ماضية في العزف في مرح وبراعة ، وهي تتحدث هن آن :
- إنها تحفظ بالسماع .. فبعد الحادث الذي أصابها جعلتها تقضي
في درسها ، حتى لا تنسى الموسيقى أيضاً .. فلا ريب انك تعلم كم يسر
المرء عندما ..

وعندئذ ألقاها صوته ، يملجلل بين أنغام الموسيقى :

- إيا .. هل تحبين زوجك ؟

فكفت عن العزف دفعة واحدة ، واخذت تتطلع اليه خلال الحجرة وقد
شعب وجهها وغدت كشبح من الأشباح ..
فأعاد سؤاله في نبرات آمرة خشنة :
- حسناً ، هل تحبينه ؟

فمرت بأفامها على مفاتيح المعزف دون وعي ، وما لبثت بمد برهة أن
قالت في جفاء :

- لست أدري كيف أجيب على هذا السؤال .

- هل تعلمين لماذا سألتك إياه ؟

فأحنت رأسها في تمهل وقالت :

- نعم ..

ثم نهضت فسارت إلى النافذة حيث وقف يحوارها ، وهي توليه ظهرها ،
وأنظارها تسرح في فضاء الطريق .. وأخيراً تحولت ، وقد بدت في أساريرها

أبلغ دلائل الألم ، قائلة :
- أواه يا مايكل اما أقطع ذلك انني لا أدري ماذا يمكن أن أقول ..
وكانت تتكلم دون تلعثم ، ولكنه أدرك مبلغ الذي تتكبد إرادتها القوية حين استطردت :
- لقد قضيت وفيليب حقبة طويلة من الزمن ، كان خلالها رفيقاً في غاية الرفق ، وما حسبت قط أن سيقع لي شيء من ذلك ..
قالت ذلك كأنما لا حيلة لها في الأمر ، فلأته نشوة الانتصار والفوز إذ لمس في كلماته الرضوح للأمر الواقع .
فهنفت بها من أعماق قلبه :
- إيما .. شد ما أحبك !
وخبا بريق الفرح الذي تألق في عينيها لحظة خاطفة ، فتقلصت شفتاهما وهي تصيح :
- ما كان ينبغي أن تقول لي ذلك ، فلو ظلنا نكتم مشاعرنا لكان في الوسع أن نمضي في رؤية أحدهما الآخر ..
فقلل في صوت أجوف جامد النبرات :
- ما كان الأمر ليستمر على هذا النحو ..
فأدركت أنه يقول الصدق ويقرر الحقيقة المجردة ..
وأجابته :
- كلا .. انه ما كان ليضي كذلك حقاً ..
- لقد اردت أن تعرفي يا إيما ..
فابتسمت ابتسامة رقيقة ..
وكانت لهجتها تتم عن الفهم عندما قالت :
- لقد كنت أعرف يا مايكل ..

وأراد أن يحاول تبرير تصرفه فقال :
- لقد حاولت أن أجاهل الأمر ، وأن أقنع نفسي بمبث ما أطمح
إليه .. ولكن هيهات ! فكنت أقول لنفسي أن شيئاً سوف يحدث
فلتستقيم بعده الأمور .

وكان صوته يخفت رويداً رويداً حتى غدا أقرب إلى الخميس ، عندما
أودف في يأس :
- ومع ذلك كنت أعلم أن ذلك الشيء لا يمكن أن يحدث ..
فوافقته في أمسى :

- لن تستقيم الأمور قط .. فكلانا ليس حراً ، وكلانا لن يكون حراً
البنية ، وليس في وسعنا أن نفعل شيئاً ، إذ لا حيلة لنا في شيء ..
وكان في وضوح هذا الكلام وصراخه القاسية ما جعل الرعدة الباردة
سري في جسده ..

حتى كان ينزع الألفاظ انتزاعاً إذ قال :
- أحقاً إننا لن نلتقي بعد اليوم ؟

فأجابت إيما :
- كلا .

- والقت حواليتها نظرة سريرة ..
وما لبثت أن سارت نحو الباب في تشاقل ، وقد خلت خطاها من ذلك
النشاط والخفة اللذين كانا يلازمانها دوماً ..
وعندها قال قانطاً :

- سوف أشعر بوحشة عظيمة لفراقك ..

فنظرت نحوه وغغمت :

- أواه يا مايكل .. وكذلك أنا ..
وخنقتها العبارات ، فأشاحت بوجهها حتى لا يرى الدموع التي ملأت

عينيها ، عندما أردفت :
- وسوف يكون فراقنا قاسياً !
وعندئذ أحاطها بذراعه وجذبها نحوه حتى تلامس وجهاهما ، ثم انحنى
فقبل فاهها ، المرة الأولى ..
وكأنما كانا يتهييان الموقف ، ويستكثران هذه القبة ، وأعاد الكرة
من جديد ..
وفي هذه المرة أحاطت إيماء عنقه بذراعيها ، فتعلقت به في
حرارة وشوق ..

الفصل الرابع

كان من المسير عليها أن ينهيا هذه الصلة بعد ذلك ، رغم أن أحداً منها لم يكن سميداً بها .. واستمررا يلتقيان كثيراً ..

وكانت السعادة قفيض عليها في بعض الأحيان ، ولكن الحقائق الأليمة ظلت ماثلة أمامها تواجهها كالأشباح الرهيبة ، فلا يستطيعان منها فكاكاً ..

ولم يكن أحدهما من ذلك الطراز الذي يسمح بتطور الصلة بينهما إلى علاقة آتمة ..

وكانت إيما تعرف كثيراً من النساء اللواتي اتخذن لهن عشاقاً في غفلة من أزواجهن ..

ولكن غريزتها الطاهرة كانت تنفر من ذلك كل النفور ، بل لم يخطر ببالها قط أن المحتمل أن تحذو حذوهم .

فقد كان هذا التبذل مما يدق على فهمها فلا تعلم كيف يمكن أن يحدث . ولذلك كانت مشاعرها النبيلة تجعلها تواجه المشكلة ، فتدرك دقتها وصعوبتها ..

وما كانت حانقة من زوجها او حاقدة عليه ، فقد كان على وشك

التخلي عن عمله المحبب كي يعود إلى بلده فيبقى معها ومع طفلتهما ، وبذلك كانت نهباً بين عاطفتين كلتاهما أشد طفبائناً من الأخرى ، وقاؤها لزوجها ، وحبها الذي لا يقاوم نحو ما بكل ..

أما ما بكل فقد كان الأمر معه نوعاً من الكبرياء .
كان يحبها ، وكان يريد ان تكون إلى جانبه دوماً ، مهما كلفه ذلك من ثمن ..
ولكن الصفات والمميزات التي يحبها فيها هي التي تعمل ضده الآن ، فتنافضه ..

اباؤها ان تسائر الحياة ، وعجزها المطلق عن إيذاء أي شخص ، وعلى الأخص ذلك الزوج الذي كان رفيقاً بها غاية الرفق ، .. وما كان في وسع ما بكل أن يناقشها في هذه المثل العليا ..
فهي كذا كانت إيما ، إيما التي يحبها !

وهكذا كانت نفسيتهما وأخلاقيهما ، كما يبدو بارزة واضحة مثلها مثل عينيها الطاهرتين الصافيتين ، وشعرها اللامع الهفاف ، وأاملها الرقيقة الموسيقية .

ولم يتحداً في الأمر ، او بحثا مشكلتهما بعد ذلك قط ، وكاذا يتحاشيان في حرص بالغ الإشارة إلى ذلك الموقف الذي كان يزداد دقة وحرجاً لظليهما يوماً بعد يوم .. وبدأت مظاهر الأسى تبدو جليلة في أساير إيما . وكانت الخطوط الزرقاء الباهظة التي تحيط باجفانها تدله على الليالي المسهدة التي تمضيها في صراع مع نفسها .

ومن ثم كان فؤاده ينفطر أسى ولوعة نحوها ، ويزداد حنقاً على نفسه لعدم استطاعته معاونتها .

وانتهت إيما إلى قرار معين ذات يوم ، فستكتب إلى زوجها وتوضح له ما حدث ، فتسأله ان يطلق سراحها ..

وقد استغرق منها انشاء هذا الكتاب ساعات برمتها من العذاب والألم ،
فلما أتمته أحضرته إلى مايكل .

وراحت ترقبه وهو يطالع الكتاب ..
وأخيراً أعادة اليها دون تعليق ، فتعاشت نظراته وهي تتناوله منه !
وأدركت انه يفكر فيما كانت تفكر فيه تماماً .. فقد كانت تلك الحيانة
من النذالة والقسوة إلى حد بعيد ، حيال ذلك الزوج الذي يحبها من كل قلبه
ويثق فيها ثقة لا حد لها .

وأخيراً قالت :

- إنني لا أستطيع ارساله ..

فتفكر فيها بعينيه السوداوين العميقتين كأنما ينفذ بنظراته إلى صميم
قلبها ، وإلى حجب المستقبل معها ، فقد أحبها في تلك اللحظة بثل مسالم
لم يحبها قط من قبل ..

ثم قال :

- أعرف ذلك ..

فهمست تقول في صوت متهدج :

- شد ما وددت لو أستطيع ارساله ، ولكنه يبدو أمراً غير لائق نحوه
ونحو آن .

- أعلم ذلك ..

كان يعلم حقاً أن إيما لا يمكن أن تكون خائنة ، ولو أرادت ، بل أن
حبيبها نفسه قائماً على احترام متبادل ، لا شك في أنه سيضيع إذا ما خضعا
لهذا الحب .

ومن ثم كانت المشكلة ليست بذات حل ..

وعادت تقول كأنما تحاول أن تجد مبرراً لما تعلم انه واقع لا محالة :

- كما انه أمر غير لائق بك أيضاً ، فما ينبغي أن يزج الأطباء أنفسهم في

مشاكل الطلاق ، إن ذلك ربما سبب لك كثيراً من الضرر ..
ولكنها كانت تعلم حق العلم أن مثل هذه التعليقات لا حقيقة لها ..
وأن شيئاً أكثر أهمية من هذه الاعتبارات الدنيوية كان في طلي القدر ..
وسألها :

- هل تعتقدين أنني أبالي بشيء من ذلك ؟
فقلت في عجلة ، وهي لا تزال تتعاشى النتيجة الحقيقية :
- حسناً ، أما أنا فأبالي بها كثيراً ، وأنني لشقية منكودة إذا ما دفعت
بك إلى مثل هذه الورطة ..
- إن شيئاً من ذلك لا يهم يا إيما ، فلست أبالي بأي شيء آخر ، كما يجب
عليك ألا تدعي شيئاً يحتمل أن يحدث لي يؤثر في رأيك ا

وأخيراً دنت من المشكلة الحقيقية فقلت :
- ليس الأمر كذلك فعسب ، فإنني لا أستطيع التخلي عن آن .
ورفعت عليها إليه في ضراعة كأنها تناشده أن يفهمها ..
وأضافت :

- لا أستطيع ذلك البتة ..
قال ذلك وهو يتقبل كلامها موافقاً ..

ثم راح يراقب أصابعها المرتعدة وهي تمزق الخطاب الذي كتبت له زوجها ،
ولم يكن قد اعتقد أو جال بفكره قط أن إيما تستطيع أن تواجه فضيحة
عذية ، أو تصمد أمام الأنوار التي تهتك الأسرار في محكة الطلاق ..

كانت كبرياؤها تشور لفكرة تعريض نفسها ، وأولئك الذين تحبهم -
مايكل وابنتها - لأعين الغرباء الفضوليين ، وسوف تظل غلصة لزوجها
لأن إيما خلقت لتكون كذلك ..

وعادت تغتم في صوت أجوف :
- إنها النهاية بلا ريب ، ولا جدوى في أن نخزع أنفسنا ..

وراحت تتطلع إلى الفضاء دون أن ترى شيئاً ، أو لعلها كانت ترى
أمامها مستقبلاً قائماً حزيناً ، قبل أن تزدف :
- ينبغي أن ينتهي كل شيء يا مايكل ..
فلما أحست بحركته السريعة إذ لم بأن يخطو نحوها ، صاحت به
ضارعة :

- كلا .. كلا .. لا تلمسني ، يجب أن ينتهي كل شيء ، يجب ألا يرى
أحدنا الآخر بعد ذلك البتة ..
وتهدج صوته وازداد خفوتاً ، كأنما غصت بريقها ، وما لبثت أن أمرعت
تعدو من الحجيرة ، دون أن تنظر ناحيته ..
فسمع خطواتها الخفيفة تعدو هابطة فوق الدرج وتجتاز الردهة الرخامية
إلى الباب الخارجي ..
ولم يرَ إيما رايت بعد ذلك قط ..

الفصل الخامس

انهمك مايكل جويس في عمله بعد ذلك واستغرق فيه وقد اهتم أن
يوصد أبواب ذاكرته إلى الأبد ..

وكان يعمل نهاراً وليلاً ، كأنما انتابته حمى ، وهو يحاول عبثاً أن يقتل
ذلك الألم والحنين اللذين بنهشان فؤاده نهشاً ..

بل لقد حاول بطريقة تحليلية أن يستأصل او يقلل من حدة ذلك المرض
الذي غلكه - كما كان يدهوه لنفسه .

ولكنه كان يعلم ، انه بعد أن فقد إيماء قد غدت حياته خاوية جوفاء ،
لا معنى لها ، ولا غرض منها ، ولا بهجة فيها ..

وكان يعيش وهي ماثلة في ذهنه أبداً ، ووجهها وابتهاساتها الساحرة
يتراقصان أمامه ..

يراهما حيثما سار ، وأينما ذهب !

في الغرباء الذين يصادفونه في الطريق ، وفي تلك اللحظة الحاطفة لرأس امرأة
في المطعم .

وفي صباح يوم مشرق سفي البهاء ، تحول عن النافذة وهو يتنهد في
حزن ، إلى المنضدة التي كانت عليها خطابات الصباح تنتظره حتى يفضها
ويقرأها ..

وفيا كان بهم بتناولها ، مع رنين جرس الباب الخارجي ، دلالة على حضور أول حملاته ..

فمضى إلى الردهة حيث وقف عند قمة الدرج ، بينما مضت سكرتيرته مس مارش تجتاز البهو في الطابق الأسفل لتفتح الباب ..

فألقى عليها بتحيةة الصباح من قمة الدرج ، وردت تحيته ببشاشتها المألوفة ..

ثم أضافت بغير اهتمام :

— طاب صباحك ، اليس فظيماً ما حدث لسز رايت ؟

فجمد في مكانه وقال :

— مسز رايت ؟

— ألا تذكرها ؟ انها والدة الطفلة التي كادت تفقد بصرها .

وظل في مكانه شارد البال جزوها ، حتى فتحت الباب وقادة سيده متينة الأمر قوية البليان إلى حجرة الانتظار ..

وبعد لحظات ، كانت كالأعوام بالنسبة اليه ، بدت ثانية وتطلعت إلى أعلا ، وقد أدهشها أن تراه لا يزال واقفاً عند قمة الدرج ، كما أزعجها صوته وهو يقول :

— ما حدث لها ؟

— من ؟ آه ! مسز رايت ؟ أوه ، لقد سقطت من إحدى النوافذ

فدق عنقها ..

ثم مضت في طريقها تجتاز الردهة إلى مكتبها بالناحية المقابلة .

فلم يزد على أن غمغم :

— آه !

ثم إذا به تغيم عيناه ، وتراقص الأشياء أمام ناظريه ، ويحس كأنه يسقط من علو سحيق ، والرياح تندفع في أذنيه ، ورخام الردهة السفلى يدور حول

نفسه وهو يرتفع نحوه ..
فتشبث بسيّاج الدرج ، وشدد الضغط عليه بأصابعه ، ثم أغمض عينيه
في قوة ا
فلما فتحهما بعد هنيهة ، كانت الجدران والأرض قد استقام وضمها
أمامه ، واستقرت في أماكنها ، فسار متلحاً عائداً إلى حجراته فأوصد
بابها عليه .

* * *

ثبت بمجلسة التحقيق أن الحوادث الرهيبة قد وقع في الساعة السادسة
مساء ..
لم يكن في المنزل في ذلك الحين سوى الطفلة آن ، وشخامة شهدت بأن
من قدعى مسز كات هوارد قد زارت المنزل بعد الظهر ..
وكان مايكل قد مضى بسيارته إلى البلدة التي عقدت فيها جلسة
التحقيق !
وذهب في هدوء إلى مكتب المحقق ، بينما كانت دوريس بوند - الوصيصة
واقفة في مكان الشهود ..
وكانت قساعة المحكمة مملأى بالحضور ، ورجال الشرطة يقفون بجوار
الجدران ..
ورأى في المقعد الأول آن يجدار سيدة أنيقة ترتدي السواد ..
تساءل :
- هل هي كات هوارد ؟ ..
ورجلاً لا ريب أنه طبيب المائلة !

وسيدة أخرى ربما كانت الطاهية ، وكان خلفهم صفوف من المتفرجين
وهم ينصتون في لهفة واهتمام ..

فتسلل مايكل في هدوء وجلس يحوار الباب ..
عندما كان المحقق يرفع أنظاره عن التقرير الموضوع أمامه على المنصة
ويقول للوصيفة :

- هل رأيت مسز هوارد وهي تنصرف ؟
- لقد رأيتهما تستقل السيارة وتعودها خارجة ..
فسأل المحقق :

- متى كان ذلك تقريباً ؟
- يمكنني أن أقرر أنها كانت السادسة تماماً .
وكان وجه دوريس بوند صارماً كأنما تشعر بأهميتها ، كما جاءت اجاباتها
واضحة في تأكيد ويقين ..
وتابع المحقق أسئلته :

- وبعد نصف ساعة من ذلك سمعت صوتاً كأنه صوت شخص ؟
- نعم ..
فأثبت المحقق شيئاً أمامه .

ثم قال :
- هذا كل شيء يا مس بوند ، وشكراً ..
فخطت من مقعد الشهود ، واتخذت مجلسها يحوار المرأة التي تحدث مايكل
أنها الطاهية .

بينما أشار أحد رجال الشرطة إلى السيدة الأنيقة ذات الثوب الأسود .
فنهضت كات هوارد ومضت إلى المنصة .. وطلب إليها أن تقسم
اليمين ..

فراهما مايكل جويس تضع يدها المدورة بالقفاز على الكتاب المقدس ،

كما سمعها تقول :

- أقسم بالله ان اقول الحق ، كل الحق ..
وعندئذ ذكرها مايكل جويس ..

فهي نفسها السيدة التي كانت في منزله ذلك اليوم ، مع إيمان بعد الجراحة
التي أجريت لأن ..

فلما مضى صوتها الجلي الرقيق متمماً :
- ولا شيء غير الحق ..

تحولت بوجهها البيضاوي المحلل بالسواد نحو المحقق .
فقال لها :

- هل أنت مسز كات هوارد ؟

- نعم ..

- وعنوانك هو ..

فقاطعته في هبة قاللة :

- اني اقيم في فندق ار كاديا ..

- نعم .. ما هي قرابتك بالمتوفاة ؟

- لقد كانت زوجة أخي فيليب ..

فسأل المحقق :

- متى رأيت مسز رايت على قيد الحياة لآخر مرة ؟

- في نحو الساعة السادسة من مساء يوم الحادث ، وكنت قد قضيت معها
زهاء الساعة ..

- لعلك كنت على موعد معها ، لتناول الشاي مثلاً ؟

فأجابت مسز هوارد :

- حسناً .. انه لم يكن موعداً بالمعنى المفهوم ، وكل ما في الأمر انها

كانت تعلم انني قد أمر بها ..

- ولكن ، هل كانت يومئذ تتوقع حضورك اليها ؟
- حسناً .. انها لم تكن تتوقع ذلك تماماً ، فمئذ أن قتل زوجي اعتدت
ان امبط عليها كلما كنت قريبة من المنزل !
- وماذا حدث عند وصولك ؟
فاجابت في صوت واضح وبغير اكتراث :
- لا شيء ..
- هل تحدثنا ؟
- نعم .. لقد ورثنا بعض الوقت ..
- هل كنتم تتحدثان عن شيء معين ؟
- كلا .. مجرد ثروة عادية ..
فسأل المحقق :
- هل كان يبدو عليها الغنيق او الاكتئاب ؟
- صلي العكس ، كانت بادية المرح والغبطة ، تتطلع إلى عودة زوجها
للوطن في حنين ولهفة ..
فتملل مايكل جويس في مجلسه ، وراح ينظر إلى الشاهدة في ايمان !
فلا ريب أنها كانت تعلم أن هذه اكذوبة صارخة ، ومع ذلك فقد
راحت تواجه المحقق بنظرات ثابتة ، هادئة ، متبالكة روحها تماماً .
واستطرد يسألها :
- هل كانت حالتها على غير ما يرام ؟
- كلا البتة !
- إذن .. فلم يكن في مسلكها ما يوحي بان هناك شيئاً
غير عادي ؟
فاجابت في تأكيد :
- كلا .. لم يكن ثمة شيء بلا ريب ، ولكنها كانت دائماً شديدة

الخوف من المرتفعات ..

فردد المحقق قولها :

« كانت شديدة الخوف من المرتفعات ، »

بينما كان يكتبه أمامه !

وما لبث أن واجهها بانظاره قائلاً :

— هل تعرفين أنها قالت لك ذلك في هذا اليوم بالذات ؟

— حسناً .. كلا ..

— فلماذا إذن تذكرينه الآن ؟

فتصنعت الدهشة والسمت حينها في براعة وهي تجيب :

— لأنني ظننت أن هذا هو التعليل الوحيد لسقوطها من النافذة .

فعاد يسجل شيئاً أمامه في الورق ..

ثم فكر لحظة قبل أن يتابع أسئلته :

— ماذا كانت مسر رايت تفعل عندما تركتها ؟

— كانت في حجرتها ، وأظنها كانت على وشك استخراج درج جواربها !

ومرة أخرى عادت نظرات المحقق تستقر عليها برهة ، كأنما ينتقي

كلمات سؤاله التالي .

وما لبث أن سئل ..

ثم قال :

— شكراً يا مسز هوارد ، هذا كل شيء !

فاستدارت كات هوارد ، وخطت من المنصة .

فأسرع مايكل ينحني إلى الأمام ، كأنما يلتقط شيئاً من الأرض ، حق

يحول دون أن تراه .

وكان وقتئذ مقطب الأسارير ، إذ على الرغم من مسلكتها في منصة

الشهود ، الذي يتم على استعدادها الطيب للإجابة على الأسئلة ومعاونة العدالة

في تبين الحقيقة .

كان مايكل جويس موقناً من أنها تخفي شيئاً .

كانت وثيقة الصلة بإيما ، تراها كثيراً ، وكانت تعلم أن حالة إيما لم تكن على ما يرام ، وأنها في الأسابيع الأخيرة ، كانت متوترة الأعصاب شديدة القلق والضيق .

ومع ذلك فهي تقول :

« لقد كانت بادية المرح والغبطة ، تتطلع في حنين إلى عودة زوجها للوطن » .

فإذا ترمي اليه بتضليلها للمعكة ؟

أهي رغبته في أن تدع إيما ترقد في مضجعهما الأخير مستريحة هانئة ، وتتعاشى المزيد من المناقشة والاستقصاء ؟

إذا كان الأمر كذلك ، فلا ريب أن كانت امرأة هلى بجانب كبير من رقة الشعور واللباقة ..

أتراها كذلك حقاً ؟

وسرت في القاعة موجة من الرثاء والاشفاق عندما مضت آن إلى مقعد الشهود ، في معطفها الأزرق المدرسي ، وساقها الطويلتين النحيلتين ومهما تترنحان قليلاً ..

وسألها المحقق أن تدنو منه حيث وقفت بجواره شاحبة الوجه بشعرها القصير المجد تحت قلنسوتها الصغيرة .

وخاطبها المحقق في رفق قائلاً :

— آن ! لا ريب أنك تعرفين ما هو الحق ؟

فغمغمت بحبيبة :

— نعم ..

— سوف أطرح عليك الآن بضمة أسئلة ، ويهمني أن تخبريني بالحقيقة

المجردة .

ثم ابتسم لها مشجعاً وهو يقول :

- هل فهمت ؟

فأومأت برأسها ..

- والان .. متى زائت والدتك لآخر مرة يا آن ؟

- قبل أن أذهب إلى فراشي بقليل .

- وأين كانت وقتئذ ؟

- في حجرتها ..

- هل دخلت الحجرة وتحدثت اليها ؟

فنظرت اليه بعينيهما اللصافيتين الزرقاوين ، كعيني إيماناً .

وأجابته :

- لقد ذهبت لألقي عليها تحية المساء ..

- وهل القيتها ؟

- نعم ..

- هل كانت والدتك في حالة طبيعية ؟

فاختلجت أهداب الفتاة قليلاً ..

ثم قالت في اقتضاب :

- نعم ..

- والان أخبريني يا آن هل كان بالحجرة شخص آخر عدا والدتك ؟

فترددت الفتاة لحظة وجيزة ، وعضت شفتها السفلى كأنها تريد أن تمسك

دموعها عن الجريان .

ثم حولت نظراتها عبر القاعة إلى كات هوارد ، متوسلة ..

وكان مايكل يرقبها في ايمان ، ويتبع كل حركة تأنيها .

قرأى كات هوارد ترفع منديلها في رفق إلى عينيها ، ثم تشير برأسها

إشارة نفي سريعة ..
كانت حركة لا تكاد تميزها العين ، ولكنها كانت حافلة بالمعاني بالنسبة
لأن ..

وعندئذ أجابت المحقق في وضوح :
- كلا ..
- ألم يحدث شيء يبدو غير عادي في نظرك ؟
- كلا ..
فانحنى المحقق فوق مقعده وراح يطرق بقلمه في تفكير ..
وما لبث أن قال :
- شكراً يا آن .. هذا كل شيء ..
وتبعها مايكل بنظراته وهي تعود إلى جوار مهتها ، كان هوارد .
وبعدئذ دعي طبيب العائلة للشهادة ، فأقسم اليمين ، وبدأ يدي
بتهكيره الففي ..
وإذا كان مايكل مقتنعاً بأنه قد سمع كل ما يهم ، متلفساً على ألا
تراه آن وتعرفه ، فقد تسلسل من قاعة الجلسة سريعاً واستقل سيارته عائداً
إلى المدينة ..

وكان يقودها دون وعي ، وهو لا يشعر بشيء سوى مرارة الحزن وهول
الخسارة .
فهي إيما ، إيما الضاحكة ، إيما المحببة إلى نفسه ، تموت ميتة شنيعة ،
فجائية ..

وما هي إذ تموت ، تكشف أموراً الخاصة وتذاع وتناقش في حفل
عام ، وقاعة المحكمة مملوءة بالفضولين ، معرضة بذلك لما كان كبيراً ومهماً
يأباه كل الآباء في حياتها .
وكانت تأتي لحظات يغبطها فيها ، وقد ماتت وغدت وحيدة لا يزعجها

شيء ، ولا تشعر بشيء البتة ، ثم يمتلكه بعد ذلك شعور من الدهشة والمعجب
والخيرة ..

كيف ؟ ولماذا ؟

فقد كان يعرف ايما كل المعرفة ، وهي لم تشر قط إلى خوفها من المرتفعات
أو من شيء آخر ..

بل لقد رآها ، إذ كان معها ذلك اليوم من أيام الخريف الأخيرة تمنحني
فوق حافة الصخور العالية ، وتراقب الأمواج وهي ترتطم بالصخور أسفلها
بمئات من الأقدام .

فكانت متوردة الوجه ، رابطة الجاش وقد هز أعماقها الشعور بأنها قد
ارتفعا عن العالم وسما فوقه ..

لم يكن بها أثر للخوف أو الوم .

ولكن هذا التغيير الفجائي كان عسيراً على الفهم أو التفكير ..

وكان لجوء ايما إلى الانتحار بعيداً عن كل تصديق ، فقد عرفت نصيبها
في الحياة وتقبلته في رضى ، مضحية بسعادتها الشخصية ، وسعادته ، على
مذبح شعورها بالشرف والوفاء نحو زوجها .

وإذا كانت قد اولته ظهرها ، هو الذي احبته من كل قلبها ، لتكرس
نفسها في تفران وبغير أثر أو أغانية لطفلتها ولذلك الزوج .

فهل يصدق انسان انها تنحرف فجأة تحت وطأة اليأس ، فتقتل نفسها ،
تاركة آن يتيمة ، وتاركة والد آن ليواجه الكارثة عندما يعود إلى الوطن ؟

ذلك شيء بعيد الاحتمال يأباه العقل كل الاء ..

وهي قد غادرت منزله ، للمرة الأخيرة ، كسيرة القلب ، ولكنها كانت
قوية العزم ، على ان تبقى مع آن ، وان تنشئها فتربيها في جو أسرة
سعيدة مترابطة ..

فما الذي حدث بعد ان تركته ؟

انه ليعذب نفسه بالأسئلة طول اليوم وهو يلغى مواعيده السابقة ويوصد أبواب عيادته .
ثم يبقى في حجرته ، ورأسه بين راحتيه ، مفكراً ، بمعنا في التفكير ، يستعيد في خيلته كل ما عرفه عن إيما ..

وكان في بعض الأحيان يمضي إلى المعزف ، فتجول أنامله فوق مفاتيحه في رفق ، كأنما يبحث عن جواب لهذه الأسئلة في الموسيقى ، وكأنما يحاول أن يحلو ذهنه وسط النغم ..
ومع ذلك فلا جواب ..

كيف ؟ ولماذا حدث ذلك ؟
وحلت اليه صحيفة المساء عرضاً وافياً لما حدث في جلسة التحقيق ..
بل لقد كانت في صدرها صورتها كأنها تتطلع اليه في حياء وخفر ..
فلما أنعم النظر فيها ، تبدت له خلالها صورة آن .. أكثر ما تكون شبيهاً بأماها .

فعمادت ذاكرته إلى ما تبدى في أسارير الطفلة من ضيق وأسى وهي تشيح بأنظارها عن المحقق ، ملتزمة العون والنجدة من عنتها كانت ..

وعاد يذكر سؤال المحقق :
« هل كان مع والدك أحد ؟ » .
ثم إشارة كات هوارد للطفلة ، تلك الإشارة الصريحة ، ثم إجابتها المغتصبة
الرجلة ، وهي تقول :
« كلا .. » .

لما الذي كانت تخفيه آن ؟
وما الذي تعرفه تلك المرأة ؟
وسمع طرقاً على الباب جفل له وانتفض ..
فقد جاءت الوصيصة تسأله :

- هل ستعود لتناول العشاء هنا يا سيدي ؟
فنظر اليها في فتور وغموض ، وقال :
- كلا .. انني ..
وكأنما استقر عزمه على شيء إذ استطرد :
- كلا .. سوف أتناول العشاء في الخارج ..
ثم هرك الصحيفة بين يديه ، والقي بها جانباً ..
فقد استقر عزمه على شيء بفعله ، شيء قد يعينه على تفهم مصرع ايما ..
فقد سمع كات تقول المحقق :
- انني أقيم في فندق أركاديا ا :

الفصل السادس

لم يكن مايكل جويس قد فكر تماماً كيف يبدأ حديثه مع مسز
كات هوارد !
ولكنه ، عندما اجتاز أبواب الفندق العظيم ، بدأ الطريق أمامه
سهلاً ميسراً ..

وكان يعرف الفندق ، ويعرف جلبيته وضوضاءه ، وفخامته وبذخه ،
ويعجب كيف يطبق بعض الناس الحياة في مثل هذا المكان ، دون أن تنهار
أعصابهم أو ينتابهم الصداح ..
وسال الفتاة الجالسة في مكتب الاستقبال :

- هل مسز كاترين هوارد هنا ؟
- فاجابته في نبرة آلية ، دون أن ترفع رأسها :
- إن الحفلة في جناح مسز ديفا بالحجرة رقم ٢٩ ..
- الحفلة ؟

- وعندئذ تطلعت اليه قائلة :
- انني آسفة ياسيدي ، حسبتك أحد المدعوين اليها ..
- فاجاب في عجلة :
- انني كذلك ..

- إنها بالحجرة رقم ٢٩ يا سيدي .. الطابق الثاني

وبادر يرتقي المصعد إلى جناح ممز ديفا المجهولة

حيث راح ينفرس في ثينك الحجرتين اللتين تكسو أرضها طنافس سميكه
وتغطي نوافذها أستار كثيفة ، وقد زخرتا بمشدد حافل من الرجال والنساء
كأولئك مكسدين فيها إلى درجة الاختناق ، وهم يثرثرون ويشربون وتعالى
ضجعاتهم ..

وكان يحول بينهم سقاة يرتدون سترات ناصعة البياض ، ويحملون صحافاً
كبيرة رصت فوقها أقداح الشراب .

كما كانت أنغام الموسيقى تنبثت من مذياع أخفي في أحد الأركان ..
فلما بلغ مايكل جويس مدخل الجناح واجهته القوضاء والحرارة وهطوط
السيدات ، كأنها هاصفة ارتطمت بوجهه بفتة ..
وتسلل إلى الداخل في حذر ..

وفي اللحظة نفسها اندفعت نحوه سيدة في منتصف العمر شقراء - تبين
للتو أنها كانت حاضرة بمجلسة التحقيق - وأمسكت بيسده اليسرى في
حرارة وهي تقول :

- شد ما يسرني أنك استطعت الحضور يا عزيزي ..

ثم ألقت عليه ابتسامة مشرقة وأردفت :

- لا أحسبني في حاجة إلى تقديمك ، فكل امرئ هنا يعرفك .
وانثنت تصيح بفتاة كانت خلفه فلم يرها :

- آه .. ها هي جوان .. تعالي يا عزيزتي ، فلا ريب أنك تعرفين

مستر ..

وفي لباقة عجيبة تحاشت الاسم ، لجهلها به ، وحولت الحديث بفتنة
إذ هتفت :

- ولكني لا أطيق أن أرى أحداً خلت يده من كؤوس الشراب .

وقدناولت كاسرين من الكوكشيل من فوق صحفة كان يمر بها أحد السعاة ،
وروضتهما في ايديهما .

ثم كشرت عن لواجدها في ابتسامة عريضة ، وتحولت تستقبل قادمة
جديدة .

فسمعها مايكل تقول في صبيحة حارة جديدة ، عبارتها التقليدية :
- شدماسرني أنك استطعت الحضور يا عزيزي .
وتحول مايكل إلى زميلته ، قالها حسناء فاحمة الشعر .
كانت تقول :

- هل لك ان تضع هذا القدح في مكان ما ؟ انني لا أستطيع أن
أشربه . آه اها هي كات هواردا ولكن رباه ، في يوم الجناسزة ؟ كيف
تجرؤ على ذلك ؟
فالتفت مايكل خلفه في بطة ..

وإذا بكات تقف متشعة بالسواد ، ووجهها البيضاوي يشرق بابتسامة
وضاءة ، فوق حافة القدح الذي كانت ترشفه ، وقد أحاط بها لفيق
من المدعويين .
كانت كما رآها في قاعة الجلسة تماماً ..

ولكنها كانت هنا أوفر حيوية ومرحاً ، يبدو عليها الاستمتاع بالحفلة
إلى حد بعيد .
وراح يشق طريقه نحوها وهو يتمتم بكلمات الاعتذار والاستئذان
يمنة ويسرة .

وكاد يفلح في الوصول إلى الحلقة التي تتوسطها ، عندما تصيدته مسر
ديفا فجأة هاتفة :

- هل تركوك وحيداً يا عزيزي ؟

وكانت تقول لنفسها :

- أين بحق السماء التقطت هذا الشاب الجميل الفارع الطول الفاحم الشعر ؟
اني أعجب من أين هبط علي ، ولكن الأعجب هو كيف نسيت اسمه ، لا
ربيب أني فقدت عقلي ..

ثم عادت تقول في صوت مرتفع :
- هنا فتاة سوف تحب بك هياماً ، ولا ريب أنها تتوق إلى معرفتك .
فرأى مايكل نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة نحيلة مديدة القامة ، كانت
تبدو في حاجة قصوى إلى الطعام والنوم ، وكانت تنظر اليه في غير
اكتراث .

بينما كانت المعجوز تقول :
- سيلفيا يا عزيزتي ، إنك لم تتعرفي إلى بيتر من قبل ، ولكنه يموت
شوقاً إلى معرفتك ..
ثم انتقلت بسرعة إلى جهة أخرى من القاعة ، وفي الوقت نفسه سمع خلفه
شخصاً يسأل :
- من الذي وجد الجثة ؟

فقال مايكل الحنق الذي احتل في نفسه ، وتحول إلى المرأة النحيلة
قائلاً :

- هل اسمك سيلفيا حقيقة ؟
فتطلعت اليه في دهشة ، وهي تقول :
- وما في ذلك ، أترام لا يروق لك ؟
ولكنه ابتسم قائلاً :
- لا شيء من ذلك فقط ، إن اسمي ليس (بيتر) .. والآن معذرة ،
فقد وعدت بحمل هذا الشراب إلى شخص آخر ..
وأمرع يتسلل إلى الجمع المحيط بكات هوارد .
فسمع جowan تقول :

- يا المسكينة إيماء .. سوف تترك فراخاً كبيراً لديك يا كات ..
وفي الوقت نفسه رآته كات ..
فرحبت به هاتفة :
- أهلاً بك يا دكتور ، انني لم أوقع البتة أن أراك في حفل كهذا
فقال الطبيب :
- وأنا نفسي لم أكن أوقع أن أحضر مثل هذا الحفل يوماً من الأيام
- انني لم أراك منذ أمد طويل ..
فابتسم لها قائلاً :
- انك تلوحين في حالة طيبة ..
- بل انني اليوم أشبه بالحطام ، فقد قضيت يوماً رهيباً تعساً ، ولعلك
علمت من الصحف أن زوجة أخي - إيماء رايت كما تعرف - قد سقطت من
النافذة ، وقضت لمحبتها ..
فتظاهر بالأسى تأدباً ..
وغمغم :
- نعم .. لقد علمت بما حدث ، واني لشديد الأسف ..
فقال كات هوارد :
- لقد عدت من الجنازة للتو ..
وفي تلك اللحظة اندفعت نحوها عجوز بادية الفضول ، صائحة :
- كاترين .. يا عزيزتي المسكينة .. ما الذي حدث حقاً ؟ هل تعتقدين
أنها هي التي ألقت بنفسها من النافذة ؟
فلم تمرها كات التفاتاً ، وظلت تبتسم لمايكل وهي تجيب في هدوء :
- كلا .. لم تفعل ذلك بلا ريب ..
فقال العجوز :
- لقد كنت أقول لجيوفري أمس أن كاترين المسكينة سوف يتفعل

كاهلها بتلك الطفلة ..

- هل تعنين أن ؟

وكانت تقول ذلك في غير اكترات ، مما جعل الألم يثور في أعماق قلبه ،
ولكنه كبت شعوره .

بينما كانت المرأة تباعد عنها وهي تهتف :

- لا تذهبي يا كاترين قبل أن أسمع القصة كلها ..

فلما انصرفت ، قالت كات :

- شد ما تضايقني بأسلتها السخيفة ..

فقال مايكل :

- أهي صديقة لك ؟

فتطلعت اليه بعينها الساحرتين خلال أهدابها الطويلة المثقلة بالطلاء ،
وقالت :

- ان كل أمرىء يبدو صديقاً لي هذه الأيام ، وكل ذلك بسبب إعا
المسكينة فهم يودون أن يعرفوا جميع التفاصيل المروعة ..
وكانت ترشف الشراب في رشاقة ، فقال مايكل وهو يبتسم لها مشجعاً
ابتسامة ذات مغزى :

- يجدر بنا أن ننصرف من هنا إذا أردت ألا تلاحقك صديقتك
هذه بأسلتها ..

فبدأ عليها الابتهاج ..

وغضمت تقول :

- يا لها من فكرة موفقة ، فلو بقيت لسقطت في الفخ كالجرذ .
وبينما كانا يمتازان الحجرة ، التقت بهما سيلفيا التحيلة ، وقد بدأ
عليها الاهتمام أخيراً ..
فقالت :

- ينبغي أن أعلم منك الحقيقة يا كات ، فإن زوجي يقسم بأن شخصاً قد دفعها من النافذة ، وأن الحقيقة قد خنقت في مهبها تجنباً للفضيحة ، فتعالى لمجلس معاً في ركن هادئ ، إذ انني لا أطيق أن أظل في ظلام دامس لا أعرف الحقيقة ..

فأقلت كات نظرة حزينة نحو مايكل ، وخطت إلى الأمام لتتجنب المرأة ، وهي تقول :

- اني حقاً لا أستطيع ذلك الآن ، فيجب أن ..
فأسرع مايكل ينظر إلى ساعته ، ويضيف لينقذها من الورطة :

- ان اتصل بي بالدك تليفونيا ..
فبدأ عليها الارتباك لحظة ..
ثم أومأت إلى سيلفيا قائلة :
- نعم .. والدتي .. إلى اللقاء يا عزيزتي ..
وتجهلت برهة عند الباب لتقول له :
- انك حقاً نعمة أرسلتها لي السماء ..

وفي اللحظة نفسها وجدا أمامها مسز ديفا كأنما انشقت الأرض عنها
فبجأة ، قائلة :

- انك لن تنصرفي الآن يا عزيزتي كات ! الا تتناولين العشاء معنا ؟
فأجابت :

- لم اعد اطيع احتمال أسئلتهن الرهيبة ، اما العشاء ..
ونظرت إلى مايكل من طرف خفي ..

ثم استطردت :

- فلا تحسبي لي حساباً فيه ..
وسرعان ما تشبثت بذراعه وصاحت :
- أسرع .. فها هي تلك المجوز المروعة ثانية .

ولوحث بيدها لمضيفتها هاتفة :

- سوف أراك فيما بعد يا عزيزتي ..

وظلت ممز ديفاً ترقبها وهما ينصرفان معاً ، وتمجج هل تحب كاترين
هوارد حقاً ، صديقتها المحيطة ؟ وهل تحبها كاترين ، وهي تنصرف من
الحفل مع أجل رجالاتها مظهرأ ، بعد أن وعدتهم بأن تبقى لتقص عليهم كل
شيء من أنباء جلسة التحقيق ؟

* * *

صحب مايكل (كات هوارد) لتناول العشاء في أحد المطاعم الفاخرة
المكتظة بالرواد ، لا تلك المطاعم الهادئة الصغيرة التي كانت إيما رايت تحبها ،
ويفضلان ارتيادها ..

وقد وافقت كات على اختياره وقالت :

- إن ذلك المطعم هو الوحيد الذي يمكنك أن تتناول الطعام فيه في
راحة ويسر ..

وكانت بادية الابتهاج بفرقة الموسيقى ذات العازفين الثمانية ، وبالمائدة
الخاصة التي اضطر مايكل إلى رشوة رئيس النادل ليحجزها لها ..

وما كادت تستقر في مكانها حتى انطلقت تقول :

- أخشى انني لا أرتدي ثياباً تليق بهذا المكان . فلم تكن لدي لحظة
واحدة لاستبدال ثياب أخرى بهذه ، إذ عدت من الجنائز مباشرة ، لقد
كانت اليوم ، كما تعلم ..

- حقاً ؟

وفي الضوء المظلل لمصباح المائدة ، المنعكس عند غطاءها الأبيض ، راحت

تتفحص زينتها في مرآة صغيرة ..
وكان الخمار الأسود ، المحيط برأسها وذقنها أشبه بإطار من الأبنوس يحيط
بصورة جامدة لوجه مقنع لا تنم أساريره عن شيء ..
وكانت تحلي صدرها بمشابك من الماس تتسأل فوق السواد كالنجوم في
ليلة ظلماء ..
فمجب ما يكل ، هل تعد هذه الحلى من لوازم الحزن ؟
وكانت تبدو أنيقة ..
وفيرة العناية بهندامها ..
ولولا السواد الذي ترتديه لما حسب انسان أنها قادمة للتو من جنازة
صديقتها وزوج أخيها . .
فلما اطمانت إلى كان زينتها ..
غمقت قائلة :
- جداً الله أن فرغنا منها سريعاً ..
وعندئذ سألتها :
- ما الذي انتهى اليه أمر آن ؟
فتطلعت اليه مشدوهة وقالت :
- آن ؟ هل تعرف آن ؟
فأجاب ما يكل :
- لقد أجريت لها جراحة منذ بضعة شهور ..
فضحكت وقد زال عنها ذلك القلق العابر ..
ثم هتفت :
- نعم .. نعم .. يا لي من حمقاء .. لقد خيل الي أن أمامي
أحد أولئك الفضوليين الذين كانوا في الحلقة .. فقد كدت أنسى أين
رأيتك لأول مرة .

فرد الطبيب :

- حسناً .. ما الذي صار اليه أمر آن ؟

- أوه .. لقد ذهبت إلى (بات) .. فإنت لوالدتي منزلاً هناك .. ولم أستطع الذهاب معها لأنني على خصام مع والدتي ، ولو أنك قد لا يملك ذلك ..

- على العكس ، بل يعني ..

- هذا تطف منكم أشكرك عليه ، ولكن الواقع أنني أهذي ولا أدري عن أي شيء أتحدث ، حتى ليخيل إلي أن جيني ديفسا قد مزجت الشراب بمادة تزيد من أثره .

- سوف يزول عنك ذلك عندما تأكلين ..

وكان يرى أن مهمته قد تكون سهلة ميسرة إذا انطلق لسانها من عقاله .

ومن ثم استطرد يسألها :

- وماذا حدث للمنزل إذن ؟

فنظرت اليه كأنما لا تفهم ما يقوله ، وغمقت :

- أي منزل ؟

- منزل مسز رايت ..

فبدأ عليها الضيق ، وقالت :

- آه ! إنه معروض للبيع ..

- هكذا سريعاً ؟

- لقد نقلنا آن منه ليلة موت أمها .. ولن يطبق فيليب رؤية المكان ثانية ، ولذلك فهو خال الآن .

فخيل اليه أنه يرى الواجهة العريضة لذلك المنزل العظيم القائم وسط الأشجار والحدائق كالطود الشامخ .

لقد أفقر الآن من ساكنيه ، فقد غابت إيمان عن جنباته إلى الأبد ، كما
غابت إيمان عن حباته إلى الأبد ، وغدا كل شيء في الحياة بعدها
خلاء مقفراً ..

واغمض ما بكل عينيه لحظة سريسة ، وهو يصني إلى نبضات قلبه
تهمس باسمها :

- إيمان .. إيمان .. إيمان ..

وعندئذ سمع صوت كات تقول في صبر نافذ :

- ألا يفكر أحد في احضار قائمة الطعام لنا ؟

فاستجمع ما بكل قواه وحواسه ، وصاح بنادي الساقى .

ثم راح ينتقي لها الوان الطعام ويبذل جهده في الظهور بمظهر الابتهاج
والمرح ، واستحشا على أن تحدثه عن نفسها ، في حين كانت ملاحظاته عليها
متملة ماحدة ..

ولقد حمد إلى الاغراق في رعايتها وتسليتها واشاعة القبطة في نفسها ،
بينما كان يرقبها في امان كما لو كانت إحدى المريضات جيء بها أمامه
ليشخص مرضها ..

ولا ريب أنه نجح معها إلى حد معين ، ففي ساعة متأخرة من تلك
الليلة ، عندما أوقف سيارته أمام باب الفندق وساعدها على الهبوط قالت :
- ليس في وسمي أن أفبك حقلك من الشكر ، فقد أنقذتني من حفلة
سقيمة ، وخففت عني همومي ومتاعبي .

ثم ابتسمت له في انتصار ، وأردفت :

- أأكون من سبق الحوادث أن أرجو لقاءك مرة أخرى ؟

فأجاب في تودد :

- لو صبرت لحظة واحدة لسمعتني أقترح عليك ذلك ..

فلاح في عيناها السرور وغفمت :

- هيا اقترخ إذن ..
- هل ستكونين حرة مساء الغد ؟
- في وسمي أن أكون .. أين ؟
- بالمطعم نفسه .. حوالي الساعة السادسة ، في المقصف !
- حسناً .. طاب ليلك !
- ومدت اليه يدها للخطاة بالقفاز .
- فضغط عليها ضغطة سريعة ..
- ثم مكث مكانه حق رآها ترتقي الدرج في رشاقة ، ثم تختفي خلف الباب الدار .

افصل السابع

استقر عزم مايكل جويس على أن يقوم بزيارة لمنزل إيمّا الخالي ..
 ففادر لندن ذات مساء ومضى بسيارته في الطريق الريفي المقفر ، نفس
 الطريق الذي اجتازه مرة من قبل ، وإيمّا إلى جانبه ..
 ومع أن الحافز له على هذه الزيارة كان عاطفياً بحتاً ، أساسه الحنين إلى
 ارتياد ربوع الحبيبة الخالية .
 إلا أنه لم يكن قد رأى منزل إيمّا من قبل .
 وخيل له أنه إذا استطاع أن يلقي عليه نظرة فلعل ذلك يوحى اليه بحل
 لهذا اللغز المستغلق ..

لغز مصرع إيمّا الفجائي .
 وبدأ له الطريق طويلاً الليلة ، حتى لقد بدأ يخشى أن يكون قد
 ضل سبيله وسط الأعراس والقفار التي تمتد أمامه وعلى جانبيه تحت سماء
 صافية ..
 فراح يتقدم بالسيارة في بطله وتمهل ، متفرساً في معالم الطريق حواليه ،
 حتى لاح له المبد القديم الصغير ، قائماً داكناً في مكانه المعبود .
 وإذاً اطمأن إلى أنه يسير في الطريق السوي ، أغمض عينيه وضاعف من
 سرعة السيارة ، وهو يجهد في إبعاد ذكرى تلك الليلة ، عندما وقفت إيمّا

مرتكنزة إلى الجدار الحجري الصلد ، تحبزه انها تحب هذا المكان ، وتحس بالراحة والدعة فيه ..

حسناً .. ما هي ذي إيمان الآن في راحة أبدية وسلام دائم .

وأوقف السيارة في الممر المؤدي إلى المنزل وأنوارها مطفأة ، بمثل ما فعل في تلك الليلة ، عندما وقفت تودعه ، وتحببه تحية الفراق .
وكان المنزل الكبير الشامخ يحيط به سكون شامل ، لا ينبعث منه بصيص من ضوء ، أو هسيس من صوت .

فانشى يطوف حوله باحثاً عن منفذ يلج إليه منه

ولكنه وجد الأبواب جميعاً محكمة الغلق ، والنوافذ موصدة لا سبيل إلى اقتحامها .

وأخيراً وجد نافذة صغيرة يحوار المدخل الرئيسي ، أدرك أنها تؤدي إلى الردهة !

فتناول قطعة من الحجر وحطم بها أحد الألواح الزجاجية ، فتناوت شظايا الزجاج على الأرض في رنين حاد تنقبض له النفس . وتلفت مايكل حوالبه ، وهو يهف السمع برهة قبل أن يمد يده خلال الثقب فيسدير مقبض النافذة ويفتح مصراعها .

ولم يسمع حساً أو حركة .

فقد كان المنزل خاوياً مهجوراً ، وعندئذ تسلق حافة النافذة في عجلة ، وما لبث ان وثب منها إلى الداخل !

وكانت خيوط متألقة من ضوء القمر ، تنعكس على الأرض اللامعة المصقولة ..

فلما اعتادت عيناه الظلام استطاع أن يميز في نهاية الردهة ثغرة في الضوء أدرك أنها باب موروب .

فمضى نحوه ورفعها في رفق ففتحه .

وإذا بضوء القمر يتسلل من نوافذ عريضة عالية تؤدي إلى الشرفة ، التي تنتهي بدرج صغير يهبط إلى الحديقة .

وانبعت خلفه في الحجرة فجأة هدير خافت ، أعقبه صوت ارتطام شيء بالأرضية ..

وتلا ذلك رنين إيقاع منتظم قوي .

فاستدار على عجل ، حيث رأى الهرة الخائفة تعدو فزعة ، على حين استقر جسم معدني صغير مثلث الشكل على الأرض تحت المعزف .

فمضى إليه والتقطه ، وإذا به جهاز يشبه الساعة المنبهة ، خصص لضبط الإيقاع الموسيقي . فأعاده إلى مكانه ، حيث استمر في رنينه المتتابع القوي ..

كانت هذه حجرة الجلوس ، الحجرة التي اعتادت إيمان أن تقضي فيها أوقات الفراغ .

كان كل شيء فيها كما تركته ..

فها هو ذا معزفها الكبير لا يزال مفتوحاً ..

وخطر له أن يجري أتمله فوق أصابع المعزف ، تلك التي طالما مستها أتمل إيمان قبل وذكر قولها :

« إن في الموسيقى راحة ودعة ، إذا ما شعر المرء بالوحدة ، .. »

ترى هل يلقى فيها شيئاً من الراحة والدعة يوماً من الأيام ؟

ونظر إلى النوتة الموسيقية الموضوعة في مكانها فوق قمة المعزف ، كانت إحدى مقطوعة موزار الخالدة ..

ثم نظر إلى جهاز الإيقاع الآلي ..

لقد كانت تدرب آن على المعزف هنا ..

في هذا المكان بالذات ..

وتعلمها كيف يطابق عزفها إيقاع الجهاز !

وعندئذ مد يده وأسكته ..
فساد الحجره صمت عميق .

وغادر قاعة الجلوس ، فارتقى الدرج المؤدي إلى الطابق العلوي ، حيث
طاف بعدة حجرات وجدها كلها مظلمة وقد اسدلت الستار على نوافذها .
ولكن احداها لم تكن حجرة إيمان .
فلما ولج حجرة أخرى بعد ذلك ، أدرك للتو أنه في حجرتها ، فما زال
بها أريج خفيف من عطرها المحبب ..
ولا ريب في أن هذه الحجره تبدو بالنهار فسيحة ، جميلة ، تسبح في أشعة
الشمس ..

أما الآن في الظلام ..
في غيبتها ، فهي مقبضة موحشة ملأى بالظلال .

وعندئذ مضى نحو النافذة ، فجذب أستارها الثقيلة في حركة سريعة
وحشية ، وإذا بضوء القمر ينصب فوقه فجأة قوياً شديداً السطوع .
وفتح النافذة دفعة واحدة .
فلما انفرج مصراعها ، واجهه نسيم الليل عليلًا هفافًا ، وعبير الأزهار
رقيقًا منعشًا .

وكانت النافذة من طراز طويل ، يمتد من السقف إلى ما يقرب من
الأرض ، فلما وقف يحوارها يتطلع إلى فضاء الريف في وجوم وحزن ، وجد
قاعدتها تبلغ إلى ما دون ركبتيه ..
وكان يستطيع أن يرى في الناحية المقابلة ذلك المعبد الصغير الذي سحر
إيمانًا وأزعج كات ..

ولم تكن تنبعث منه أنغام الأرغن وقتئذ ، كما لم يكن ثمة منازل أو
أكواخ أخرى على مرمى البصر ..
لا شيء سوى تلك الحقول والأحراش ومئات الأشجار الباسقة المورقة .

ونعبت بومة من مكان قريب مرتين ، فأثار نعيمها كوامن حزنه .
فكم من مرة وقفت إيماناً في هذه البقعة نفسها ، وقد ارتاحت نفسها إلى
السكون الساجي ، وإلى منظر التلال المنحدرة وشريط الماء الذي يتسألقي
أسفل الوادي ..

وتحولت أنظاره في بطنه عن الأفق إلى أرض الحديقة تحته ..
كان الفناء الصغير الذي رصفت أرضه بالحجارة المصقولة ، والمؤدي إلى
الشرقة ، يبدو من هذا الارتفاع السحيق ، كرقعة شطرنج صغيرة داكنة ذات
خطوط متوازية قائمة ، تحيط بها أحواض الزهور المختلفة ..
ولاريب أن إيماناً كانت ترى هذه الرقعة ، بمثل ما يراها الآن ، آخر
مارأت ، قبل أن تهوى من حالق ، فتستقر فوقها كومة من الحطام ، لا
حياة فيها .
وامتلأت أذناه فجأة بطنين هائل غير مألوف ، واختلط المنظر أمامه
لحظة فلم يعد يميز منه شيئاً ..

ولكنه ما لبث أن عاد واضحاً مرة أخرى ، وهو يرتفع مندفعاً نحوه ،
وشعر كأنه يهوي من علو سحيق ، في سرعة خارقة ، والفضاء يدور به حوله
ورقعة الشطرنج تدنو منه كقطار ينقض نحوه .

فتشبث بقاعدة النافذة في قوة ، وقد سرت الرعدة في بدنه ..
وكأنما أعاده مجلس الخشب الحشن إلى صوابه ، فارتد إلى الخلف مجفلاً
بعميداً عن النافذة ، وأخفى عينيه بكتف يديه وهو يترنح في وسط الحجارة
كالثمل ، وقد هز الرعب كيانه هزاً ..

إذ كان يرى أمامه بعين الخيال (إيماناً) وهي تهوي إلى أسفل من الفراغ
الرهيب إلى عالم الفناء .

فلما قسر نفسه أخيراً على العودة إلى النافذة ، كان وجهه شديد
الشحوب ، ينساب العرق البارد فوقه في أخاديد جديدة ، لم تكن به

من قبل .
 ولم يحسر على التطلع من النافذة مرة أخرى ، فمد يديه وأوصدها ثم أعاد
 الاستار إلى مكانها
 فساد الظلام فيها من جديد ، بعد أن احتجب ضوء القمر ، ولم يعد حوله
 سوى حجرة إيما الخاوية ..
 وسوى أريج عطرها الخفيف ..
 وكانت جنبات الردهة والبهو تتجاوب صدى وقع أقدامه فوق الدرج
 الحجري وهو يهبط في هجل كأنما تظارده أشباح رهيبة ..
 فلما عاد إلى حجرة الجلوس مضى قدماً إلى المعزف فأدار جهاز الايقاع ،
 وقد سرح فكره إلى أغنية يتفق ايقاعها مع دقاته الرتيبة :
 « سيدتي هل لك أن تسيري .. سيدتي هل لك أن تتحدثي » ..
 فمد يده وأسكت الجهاز ..
 ثم جلس في الظلام على المقعد الصغير أمام المعزف ، وراحت يدها تتران
 على مفاتيحه في غير وعي ، عازفة تلك الأنشودة الخفيفة ، كما عزفتها إيما في
 تلك الأمسية ، وهي تصلح المواضيع التي اخطأت فيها آن في الاسطوانة ،
 وقد بدا في أساريرها الزهو والحنان ..
 وسمع وقع نبراتها الرقيقة وهي تقول :
 « لقد أخطأت في هذا الموضع » .
 وكان يعزف الأنشودة ، غافلاً عن الزمان والمكان ، مستغرقاً في ذكرياته
 عنها ، وفي الموسيقى التي طالما استمعها اليها معاً !
 وفجأة انبعت الضوء في الحجرة في مثل وميض البرق ، يبهر العميون
 ويكشف عن الأثاث العتيق الفاخر ، وأواني الزهور الفارخة الا من بقاياها
 جافة ذابلة ..
 ففشيت عيناه لحظة ، وتراخت يدها الى جانبيه ..

ثم استدار على عجل !
واذا به يرى في باب الحجرة كهلاً موخط بالشيب ، مكنتز الوجه فامي
اللحية ، يرتدي قميصاً مفتوحاً ، ويقف جامداً لاهت الأنفاس مشدوهاً ،
وما لبث أن غمغم :

— يا لله ! انه من البشر !
فصاح به مايكل حانقاً :
— من أنت بحق الشيطان !
فأجاب الكهل ، وقد استمد من المفاجأة والفزع قوة :
— هذا ما ينبغي أن أسألك عنه .
— لم أكن أحسب أن أحداً هنا ..
فزجر الآخر وقال :
— لا عجب ان حسبت ذلك ، ولذلك سأقبض عليك بتهمة السطو على
منازل الغير !

فلما قمقه مايكل ضاحكاً ..
أردف الكهل في تردد :
— لعلك من لحم ودم مثلنا ؟
— هل كنت تتوقع أن ترى شعباً ؟
فلما اقتنع الكهل انه الذي أمامه من البشر ، ارتدت الدماء الى وجهه
بعد فرارها ، وأجاب :

— ألم تكن تتوقع ذلك لو كنت في مكاني ؟ لقد قضت السيدة لمحبتها منذ
أربعة أيام فطسب ، وكانت نهايتها عنيفة مروعة ، وقد سمعتها كثيراً منذ
ذلك اليوم ، ولكنها لم تكن تعزف على البيان .

وكان صوته صوت شخص يقرر حقيقة ثابتة .
بحيث قال مايكل في احترام :

- اتعني انك سمعتها ورأيتهما ؟

فأوما برأسه الأشيب وقال :

- انها لا تدعني أراها قط ، ولكني اسمع قمعقة أخشاب الدرج ، فسلا
اجد في نفسي الجراءة على الدخول لرؤيتها !
وكان صوته يفيض حناناً وهو يقول ذلك .
وما لبث ان تنهد في أسي ، وكأنما استقر عزمه على امر ، فخطا الى
الأمام قائلاً :

- والآن .. هل انت قادم معي في هدوء ام أدعو رجال البوليس ؟

فأحسم مايكل معطفه ورفع قبعته ، ثم مضى نحوه قائلاً :

- هل انت المكلف بشؤون هذا المنزل ؟

- اني الحارس ، فقل لي هل أخذت من هنا شيئاً لا يخصك ؟

- كلا ..

فلما اطمأن الكهل وارضى ضميره ، تبع مايكل الى الردهة وهو يقول :

- خذها نصيبه مني ، عندما تسطو على منزل في المرة القادمة فلا تبدأ

بالعزف على البيان وإلا خرجت صفر اليدين الى السجن قدماً .

فغمغم مايكل موافقاً !

فلما بلغا الباب الخارجي ، تمهل قائلاً :

- هل كنت تعرف السيدة التي كانت تملك هذا المنزل ؟

فقال مايكل :

- اعرفها ؟ لماذا ؟ لقد اشتغلت عندها عشر سنوات ، كنت خلالها الموكل

بالعناية بالحديقة ..

- البستاني ؟ كلاي ؟ هل أنت الذي كنت تعزف على الأرغن في المعبد ؟

فتطلع اليه مشدوها وقال :

- ماذا ؟ هل تعرفني ؟ اصغ الي اذا ، ليس ثمة من يدعو الى وقوفنا

هنا في هذا الجو البارد ، لماذا لا تأتي معي إلى حجرتي فنتناول قدحاً من الشاي ؟

فقال مايكل في اخلاص :
- ليس أحب إلي من ذلك .

ثم أضاف بعد لحظة :
- لقد فهمت أن مسز هوارد لم تكن تسر بعزفك على الأرغن ..
فبدا الاشمزاز والنفور في محيا كلاي وصوته حق خيل إلى مايكل انه سوف يبصق اشمزازاً ..

ثم قال :
- مسز هوارد ؟ مسز هوارد التي قدس أنفها في شؤون كل شخص ، لقد جعلت حياة السيدة المنكودة جحيماً لا يطاق ..
وبدت المرارة في أسارير الكهل المغضنة ، عندما تحول يقود مايكل إلى داخل الردهة ثانية ..
ثم إلى درج حجري يؤدي إلى قبو المنزل ، حيث دخلا حجرة يشع منها الدفء ويضيؤها مصباح صغير ..

حيث كان ابريق الشاي موضوعاً فوق الموقد ، والبخار يتصاعد من فوهته ..

وكان في وسط الحجرة منضدة صغيرة ، تناثرة فوقها أوراق اللعب من النوع الذي يتسلى به المرء بمفرده قتلاً للوقت ، وأدوات الشاي المختلفة ..

فقد كان كلاي يعيش في عزلة ..

ولذلك ، كان السرور بادياً في وجهه إذ يجده من يجلس معه ويؤنس وحدته

واستعث مايكل على الجالوس وهو يقول :

- يا لها من مأساة مروعة ! ومثل هذه السيدة الرقيقة !
ثم أردف في مرارة :
- انني عادة اكون في فراشي في مثل هذه الساعة ؟

فقال مايكل :

- لو انني إذا تأخرت قليلا ، لاستطعت أن أعزف على البيانو في
سلام ودعة ..
وكان كلاي قد اقتنع بأن السطو على المنزل لم يكن سوى مزحة من هذا
السيد المهذب ..

فقال :

- بل لو اذك اخترت الليلة المناسبة لأمكنك أن تقضي الوقت كله
كأنك في منزلك دون أن يزعجك أحد ..

- آه .. حقاً ؟

- انني امطي الدراجة إلى منزل أخوتي دائماً في أيام الجمعة ، حيث أذهب
لرؤيتها والمبيت عندها .
وكان قد ملأى قدسي الشاي وجلس في مواجهة مايكل ..

بينما ضحك هذا قائلاً :

- شكراً على هذه المعلومات الطيبة ، فلو كنت لصاً لأمكنني ان
أقيد منها !

فأوماً كلاي برأسه إيماءة العليم ببواطن الأمور وقال :

- كلا .. إنك لست لصاً ..

ورشف مايكل جرعة من الشاي القوي قبل أن يقول :

- لقد كنت أعرف مسر رايت . ولذلك أردت ان القي نظرة على
مسرح الحادث .

فطرق كلاي المنضدة بقبضة يده وصاح :

- الحادث ؟ انه لم يكن حادثاً قط ..
وشعر مايكل بالانفعال يسري في عروقه ، وقال :
- ولكن الحق قال انه كذلك ..
- اصغ الي .. هل يبدو لك انه من المعقول ان تسقط السيدة من نافذة طالما نظرت منها خلال عشرة أعوام برمتها ؟ وهي سيدة في تمام صحتها لا تخشى الأشباح ، ولا تخاف من المرتفعات ، بقض النظر عما قاله بعض الناس في جلسة التحقيق .
- وتأمل لحظة قبل ان يستطرد :
- إنها شيطان رجيم ، تلك المرأة مسز هوارد ..
فقال مايكل وهو يحرك قدحه في ببطء :
- أحسب انك نكره تلك السيدة . ولذلك تعتقد أن لها بدأ في الأمر ..
- وعندئذ ثارت فائرة الكهل .
- فانطلق يقول محتدأ :
- لست وحدي الذي يقول ذلك ، ان دوريس الوصيعة ، وكذا الطاهية تشاركانني في اعتقادي ، ان مسز هوارد لم تكن تترك مسز رايت في سلام قط ، كانت دائماً تثير الشجار ، وتريد أن تملي ارادتها عليها بشأن ادارة المنزل أو تربية الطفلة .. وكانت على الدوام تستفزها وتهيج مشاعرها ، وهذا هو السبب في انها اضطرت رغم انقها إلى الرحيل من هنا ..
- اضطرت الى الرحيل ؟
- فقال الكهل :
- لقد أنت لتقيم هنا بعد مصرع زوجها ، ولكنها لم تمكث طويلاً .. كانت لا تكف عن طلب النقود ، وغيرها من الأشياء النفيسة ، واخيراً وقع حادث السجادة .

فسأل مايكل :

- وما هو حادث السجادة ؟

- آه ! لقد سرقتمنا ، اعني مسز هوارد ، وقد جعلت مسز رايت الأمر يبدو كأنها هي التي وهبتها إياها ، ولكننا كنا نعلم الحقيقة .

فذاث صباح ، في نحو الساعة التاسعة ، أتت سيارة نقل ، فعمل سائقها تلك السجادة ومضى بها ..

وقد ذكر ان مسز هوارد باعتها لقاء مبلغ زهيد ، وكانت أحب السجاجيد إلى مسز رايت ، فهي واحدة من السجاجيد الشمينه الشرقية .

وقد أفلقت هذه الأمور مسز رايت المسكينه ، وهي سيدة لطيفه رقيقة الشعور ..

فقطاً مايكل رأسه وغمغم في نبرات متهدجة :

- لقد كانت كذلك حقاً .

وظل يصغي طويلاً إلى نبرة الكهل بعد ذلك ..

وأخيراً نهض قائلاً :

- يحذر بي أن أنصرف الآن ..

فتبعه كلاي فوق الدرج المؤدي إلى المطبخ وهو يتسابع حديثه

قائلاً :

- نعم .. وقد حاولت أن تطردني من هنا زاعمة أنها لا تطيق عزفي على

الأرغن ، وبهذه المناسبة ، هل تحب الغناء ؟

فابتسم مايكل في حزن وقال :

- إنني لم أغن منذ زمن طويل ..

وكأنما أسف الكهل لحرمانه من رفيق يشاطره الحديث ..

فقال :

- انني لا أجد من أتحدث اليه إلا عندما أذهب إلى أخوتي فأقضي

الليل عندها !

- ربما حضرت إلى هنا ثانية ليلة ، فهل يروقك ذلك ؟

فأشرق وجه كلاي بالبشر وقال :

- أجل .. تعال كلما طاب لك أن تفعل ، ولكن لا تأت أيام الجمعة ،
فلن تجديني هنا ..
وأدار نظراته حواليه برهة . متطلعا إلى حجرات الطابق
الأعلى ..

ثم هس لمايكل في اهتمام وأسى :

- إذا شئت ان تعرف رأيي ، فهو ان مسز هوارد قد دفعتها
من النافذة ..

فشمع مايكل بقلبه يخفق في عنف .

ولكن صوته كان هادئا إذ قال :

- آه ! انني واثق من أن ذلك غير صحيح ، فلماذا تقدم مسز هوارد
على شيء كهذا ؟

فتطلع اليه كلاي لحظة ، كانت أساريره فيها تنطق بالصرامة والجد ، كما
كان صوته ينم عن اقتناع عميق وهو يجيب في ببطء :

- سأقول لك شيئا واحداً ، هو أنها خليقة بأن تفعل ذلك ؟

فقال مايكل :

- مهما يكن من أمر ، فقد ذكرت الوصفية في التحقيق ان مسز هوارد
غادرت المنزل قبل الحادث بنصف ساعة ..

فأجاب الكهل :

- لقد قررت دوريس ذلك لتقي ذكرى سيدتها شر القيل والقال ..

وبينا كانا يتصافحان ..

قال مايكل :

- حسناً .. أرجو ان تكون مخطئاً ، من اجل مسز هوارد ا
فزيجر كلاي متبرماً ..
كان يعرف مسز هوارد جيداً ، وان يكتك ان تعزع يقينه مها قلت له
او عارضت آراءه فيها ..
وصحبه مايكل الى الباب الخارجى في صمت ..
وهناك لم يزد على أن يقول :
- طابت ليلتك ..
- وليلتك يا سيدي ..
وكان مايكل بهم بادارة محرك سيارته عندما سمع باب منزل ايمسا يوصد
خلفه بصوت مسوع ..

الفصل الثامن

أمر مايكل جويس بأفداح الشهبانیا ، واشمل لكات سيجارتها ..
وكان من يراه يحسبه يتفق حياته ، بعد الأوان ، في المطاسعم والمشارب
وحلقات الرقص من أجلها .

ولكن الوقت لم يكن لينفق عبثاً ..
فقد كانت كات بمن يفضن في الحديث عن أنفسهم .
ولا ريب أنها في إحدى تلك الأمسيات سوف تدع لسانها بقلت كلمة
هائرة يعلم منها مدى ما تعرفه عن موت إيمان ، فقد كانت واثقة أنها تعرف
الحقيقة في ذلك ..

وكان كل ما يستند إليه في هذا الشك ، هو علمه بأنها كذبت إذ
قالت في جلسة التحقيق أن إيمان كانت مريحة فتطلع إلى عودة زوجها
في لحظة ..

كذلك تلك الإشارة الخفية وهي تأمر بأن تجيب نفياً عندما سأها المحقق
هل كان مع والدتها احد قبل مصرعها ، فذلك يدل على أن شخصاً ما كان
مع إيمان ..

فمن هو ؟

وكان قد علم الكثير من كل شيء ، وهو رجل لا شك في أمانته وفراط

وفائه وحبه لا يما !

ولكن الى اي حد يمكن التمويل على ما قاله في كات هوارد ؟
ان هذه الأقاويل رغم كل شيء ، لا تعدو أن تكون من ثروة الخدم ، كما
قال المحقق ان كلاي يمتنها .

ومن ناحية أخرى ، فقد كان كلاي يعيش في المنزل وعرف كات أعواماً
طويلة ..

وكانت رنة الاقتناع في صوته عندما قال :
« سوف أقول لك شيئاً واحداً ، هو أنها خليقة بأن تفعل ذلك » .
قد تركت في نفس مايكل أثراً عميقاً ..

واخذ ينظر اليها وهي تجلس أمامه .. ويتأمل ذلك الوجه البيضاوي
الفض وقد احاطت به هالة من شعرها الفاحم الهفاف تحت قبعة صغيرة انيقة ،
وذلك الغم الدقيق الأرجواني ، وتلك اليدين البضتين ، وقد صقلت أظافرهما
وطليت بما يشبه لون الدماء ، وهما تمسكان بقدرح الشبانبا ، ترى هل هي حقاً
خليقة بأن تقتل زوجة اخيها ؟
وكانت عيناها الصغيرتان تبدو فيهما دلائل الانتصار وهي تبسم له عبر
المائدة فتقول :

— اني لا استطيع ان اصف لك مروري عندما رأيت الجواد الذي
راهننت عليه يفوز بمعجزة ، فقد كنت في حفلة السباق اليوم ، وهكذا رجحت
مائتين من الجنيئات الجميلة ؟

وكذلك من الملاحظ ان شؤون المال كثيراً ما كانت تأتي في احاديثها ،
وقد قالت له :

— انني دائماً متوترة الأعصاب ضيقة الصدر ، اذ تأمر اهل زوجي وأهلي
على أن يتركوني دائماً بلا نقود ..
— ولكن زوجك نفسه ؟

فقال ساخرة :

- آه ا هو ؟ لقد كانت المجاملة الرقيقة الوحيدة التي قام بها نحوي هي أنه مات شاباً .

* * *

وكان ما بكل قد التقى بكثيرات من النساء مثيلاتها .. من اولئك اللواتي امتلأت نفوسهن بالآثرة وحب الذات ، واللواتي تستر أساليهن المهدبة وثياهن الثمينة ، تلك النوازع الداخلية التي تدفعهن إلى الحصول على كل ما يردنه لأنفسهن ..

وهكذا كانت كات ..

فالشخص الوحيد الذي يهم كات هوارد هي كات هوارد .. فهي تحب المتعة لنفسها ، وتحب الفراء والحلى ، وكل ما تستطيع النقاد أن توفره من مظاهر البذخ والرفاهية .

وهي لا تتورع عن استخدام أية وسيلة في سبيل الحصول عليها ، وطالما تحدثت عن رغبتها في امتلاك مبالغ كبيرة من المال : « حق أجعل من حياتي شيئاً ذا قيمة »

ولم يكتشف قطعاً الذي كانت تريد أن تجعله من حياتها ..

ومع ذلك فكانت تقضي الساعات في مناقشة ما تفعله إذا كانت تملك مليوناً ..

وكان يصفي إليها في صبر وجلد ، وقد فارت شفقتة ، كما كان دائماً حريصاً كل الحرص على أن يطلب لها من الطعام والشراب ما ندر وجوده ، فتفيض بالاعجاب بنوعه لا بشيء ، إلا لأنه غالي الثمن .

ولقد ادرك ما بكل ، في مرارة بالغة ، مدى السهولة التي يستطيع المرء
بها أن ينال نساء مثل كات ..
فيكفي أن تبدي نحوه من اهتمام يسيراً ، حتى يحسبن ، وقد أعماه
الغرور أنك شغفت بهن حباً ..

ومنى مزجت الطعام والشمبانيا اللذين تقدمهما له ، بشيء من التعلق
والديح .. فلا تلبث أن تراهن تحت قدميك ، متجعدات من الثياب
والحيا ، ممأ ..
أما كات فقد تقبلت ملاحظاته كمظهر طبيعي من مظاهر تقدير محاسنها
ومفاتيحها ..

وإذ وثقت من إعجابه ، فقد راحت تتحدث في غير تحفظ ..
وسرعات ما عرف كل شيء عنها ، عدا تلك الأشياء التي كان يريد
حقيقة أن يعرفها ..

كانت تفيض في الحديث عن زوجها ، وعن أسرته التي لم تكن على وفاق
معهما - لأنهم كانوا شحيحين ، يضمنون عليها بالنقود - وعن مبادل أصدقائها ،
ولكنها كانت أقل صراحة فيما يختص بعلاقتها بإيما .
وقد اغتبط لذلك واطمأن له ..

فلم يكن التحفظ من صفات كات البارزة ، ولن تتمحور عن أن تفيض
الحديث عن زوج أخيها الميتة إذا ما شجعها على ذلك .
ولقد شجعها حقاً ..

لمرة بعد مرة ، كان يدور بالحديث حول إيما ..

ولكن خاب أملاً ، فقد كان دائماً يرى نظرة جامدة متحفظة تلوح
في عينيها ..

وقد تكون كات منتشية تفيض بحيويتها الدافقة وحديثها الطلي ، ولا
تلبث أن تهز كتفها في غير اهتمام ..

ثم تجيب إجابة وجيزة وتتحول بالحديث إلى وجهة أخرى بعد أن تسيطر على نفسها من جديد .

وكان مايكل جويس يقضي الليالي ساهراً مسهداً يذرع حجراته ذهاباً وجيئة كوحش حبيس ، وهو يفكر في إيما ..

أيما التي غدت الآن نسياً منسياً إلا عنده هو ..
وكان لا يفتأ يستعرض الأمسية التي قضاهما للتو مع كات ، ويعيد التأمل في اللحظات المختلفة التي بدت في أساريهما ، وفي نبرات صوتهما كلما كانت يجرحها إلى الحديث عن إيما ..

لقد كان الأمر في كل مرة واحداً لا يتغير ..
ما من لحظة تنم عن العاطفة أو الأسى .. وإنما دائماً ذلك الجمود وعدم الاكتراث .

ومع ذلك - ودون سند معقول - بدأ مايكل جويس يعتبر كات هوارد مسؤولة عن موت المرأة الوحيدة التي أحبها واحترمها .
فإذا تأيدت شكوكه هذه نهائياً ، فإنه لن يتورع عن قتلها ..
بل شد ما يسره أن يقتلها ، فقد كانت في نظره حيواناً ضئيلاً شديد الخطورة لا قيمة له في الحياة ..

وإذا ثبت لديه أنها هي التي دمرت إيما فسوف يدمرها تدميراً ، ويقضي عليها كما يقضي على أي حيوان خطر ..
ولسوف تخبره كات هوارد نفسها بما بما يريد أن يتحقق منه !

* * *

وقد صبح حدسه ..

وقالت كات شيئاً ذا أهمية بالغة ..
فعمدما التقيا في الليلة التالية ، طلبت كات كأسين من الشراب القوي ،
قائلة ان اعصابها مرهقة ببعض متاعب عائلية ..

اهما العناية بأن ..
وذكرت انها تلقت خطاباً من اخيها فيليب ، زوج ايبا ووالد آن ..
فأبدى مايكل قلقه على فيليب قائلاً :
- انني ارثي لحاله ، فإن الأمر شاق عليه ، واعتقد ان ايبا كانت زوجة
فاضلة وام رؤوم .
ثم انتظر ليسمع ما تقوله كات رداً على ذلك ، لتتفهم به الموضوع
كماداتها ..
ولكنها لم تفعل ، بل نظرت اليه من فوق حشافة الدج ، في خبث
وتسلية ، قائلة :

- لقد كان لايبا عشيق ..
فارتعد مايكل ..
وفارقه هدوءه ..
ثم قال معترضاً :
- آه ، هذا غير صحيح ..
وظلت كات ترمقه في خبث قائلة :
- ارى ان ذلك يدهشك ؟
فلم تفتها كثرة ملاحظاته العابرة عن إيبا ..
ولم تكن تطيق ان يعتقد اي رجل الطمارة والفضيلة في اية امرأة
أخرى ، حتى ولو كانت في العالم الآخر ..
ولذلك .. لم تستطع مقاومة هذه الفرصة السانحة للتقليل من
شأن ايبا ..

وتعتمد مايكل ان يبرز كصفه في غير مبالاة وهو يسألها :
- وكيف علمت ؟

فعمدت لحة التحفظ إلى عينيها عندما أجابت :
- لقد اخبرني بذلك ..

وظل مايكل جالسا في صمت مطبق برهة طويلة ، لقد عادت كات إلى
الكذب ثانية ..
فلم يكن لا بما عشيق قط ، بالمعنى الضيق الذي تعنيه كات بهذه الكلمة ،
كما أنه ليس من المعقول البتة أن تخبرها ايها بشيء عن حياتها العاطفية
الخاصة ..

وأخيراً قال في ببطء :
- وهل أخبرتكم عن يكون الرجل ؟

فجذعت كأسها ، ثم تناولت اصبع الطلاء الأحمر من حقيبتهم وراحت
تصليح من زينة شفيتها قبل أن تجيب :
- كلا .. واحسب أنه لا ينبغي أن أخوض في سيرتها بعد أن قضت
نحبها ، ولكن لعلك علمت الآن لماذا قلت انه من الخير (لأن) أن تكون
بميدة عنها !

- وابن ستقيم آن في المستقبل ؟
- مم ..

فنهتف في اشمزاز :
- معك ؟

وكأنما أحسست بما في لمجته لها ، فسألته :

- ما الذي يضايقك في ذلك ؟

فاستعاد اتزانه ومرحه وقال :

- لست استطيع ان اتصورك معنية بتربية الأطفال !

وكانت ابتسامته تدل على أنه يرى كات من المرح وحب اللهو بحيث لا
يمكن أن ترتبط بحياة منزلية وادعة .

وقد فهمت ما يرمي اليه فقالت :

- لا تكن واثقاً من ذلك قلماً ، فإني ملأى بفرائز الأمومة الكامنة .

- هل انت كذلك حقاً ؟

فتمضحاً في غير تكلف ، ثم قالت :

- كلا ..

واستطردت :

- سوف أرسلها إلى مدرسة داخلية بحيث لن تضايقني إلا في عطلة

الصيف ..

- أي بعد بضعة شهور عديدة ..

- لا ريب انك قرأت ما يدور بفكري ..

واقبل الساقى بقدر آخر من الكوكتيل وضعه أمامها ..

بينما قال مايكل :

- هل وافق والد آن على هذا الترتيب ؟

- آه .. نعم .. لقد ابرق لي لأعد لها منزلاً ؟

ففكرت كات في أن مايكل يبدو اللبلة ثقيلاً على عادته ..

وقالت :

- لا تكن كثير التدقيق .. لقد فعلت ذلك لارضاء فيليب فحسب ،

إذ ان (آن) أثارت الكثير من المتاعب في الإقامة مع والدتي ، وأراد فيليب

أن تعيش في كنف شخص أصغر من ذلك ، فلم يبق سواي ..

والمحنت في سخرية ..

على حين قال مايكل :

- لقد فهمت ، ومضى وحل إلى المدرسة ؟

- يوم الاثنين القادم ، ولكنني أرسلت في احضارها إلى المدينة غداً لتعرض اسنانها على الطبيب قبل أن ترحل ..

فقال في تخايب :

- لست أدري لماذا ترجعين نفسك إلى هذا الحد في سبيلها؟

فقايت الصغرية عن قم كات ، وقالت :

- اوه ! ان فيليب يمنحني مبلغاً كبيراً للعناية بها .. وماذا افعل ؟
اننا جميعاً ينبغي لنا ان نعيش ، ولكن اليس من الأفضل ان نمضي لتناول العشاء الآن ؟

فغمغم يقول :

- إن آراءك تدعو إلى الاعجاب .

ولكنه كف عن طرق الموضوع بعد هذا الحد ، إذ بدا التحفظ على كات ثانية ..

وغدا من الحتم عليه أن يمضي في سبيله محاذراً حريصاً ، وسوف يكون للعشاء ، والشعبانبا ، والمبارات المسولة التي يصحبها في اذنيها ، ما يكفل عودتها إلى مرحها العادي ..
وكان يفعل ذلك مرغماً ..

يا لله اك يمقت هذا الصوت الناعم الأجوف ، وذلك القناع الرقيق الوضاء الذي يكسو وجهها .

ولم تجد كات غباراً في مسلكه أثناء العشاء ..

كان مرحاً ، مثلاً للرجل المهذب ..

ولقد رأيتها صديقتها جيني ديقا في المطعم معاً ، فقالت لها في اليوم التالي :

(إن الرجل قد غدا عبداً لك يا عزيزتي) ..

وهو ما ينبغي ان يكون طبعاً ..

فلما ضغط مايكل على يدها مودعاً أمام فندق اركاديا في ساعة متأخرة
من تلك الليلة ، قال لها :
- في أية ساعة تذهب آن إلى طبيب الأسنان غداً ؟
فسألته في دهشة بالغة :
- لماذا تهتم بذلك إلى هذا الحد ؟
- لقد خطر لي أنك ستكونين في فمحة من الوقت ، أثناء زيارتها
للطبيب ..
فرحف الابتسام إلى عينيها في ببطء وهي تقول :
- آه .. وما شأن ذلك ؟
- إذا كنت خلواً من العمل ساعتئذ فيمكن أن نلتقي ..
- إنها فكرة طيبة ..
ثم وافقت على أن تقابله في (سافوى) لتناول الشاي في الساعة الرابعة
بعد ظهر اليوم التالي ..

الفصل التاسع

كان مايكل عازماً على أن يرى آن وحدها ..
على حين كانت ذات لا تشك في شيء عندما ضرب لها هذا الموعد
لتناول الشاي !
هذا الموعد الذي لم يكن في نيته أن يلبيه قط ..
بل انتظر في المنزل طوال فترة بعد الظهر حتى سمع رنين جرس الباب
الخارجي ..
ثم سمع صوت آن في الردهة تقول للوصيفة :
- لقد أخبرتني عمي بأن احضر لانتظارها هنا عندما تنتهي من زيارة
طبيب الأسنان ، لأنها ستتناول الشاي في مكان آخر ، وستحضر لأخذي من
هنا بعد ذلك ..
وسمع مايكل الوصيفة تقود آن إلى إحدى حجرات الاستقبال ، وتغلق
الباب وهي تنصرف .
فأسرع بهبط الدرج ويفتح باب الحجرة قائلاً :
- مرحباً بك يا آن ..
وكانت الفتاة النحيلة ، الطويلة القامة تبدو أنيقة في ثياب المدرسة
الرمادية ، وعلى ذراعها شارة الحداد السوداء ..

وكانت قد القت بقبعتهما على المنضدة ومضت تقلب صفحات إحدى
المجلات المصورة

فاستدارت على عجل ، في حركة لا تخلو من الخوف والتوجس ..

وعندئذ لاحظ ما بكل مدى ما أصاب وجهها الصغير من تحول وشحوب ،
وبدا عليها الاطمئنان عندما تبينت من يكون ، وارتسمت على فمها ابتسامة
شاحبة وهي تهتف :

- آه .. كيف حالك ؟

- هل تمعت كثيراً عند طبيب الأسنان ؟

- ليس كثيراً ، وقد طلبت مني عمي كات أن انتظرها هنا .. ألا
يضايك ذلك ؟

فابتسم في وجهها وقال :

- لقد كنت انتظرك ، هلا جلست يا آن ؟

واذفطر قلبه ، إذ تبين التغير الذي أصابها منذ رآها لآخر مرة ..
فلم تكن آن ، نفس الطفلة التي بمهدها وهو يدرك هول الصدمة التي
أصابتها بموت أمها .
ولكن التغير كان أعمق من ذلك ..

كانت الفتاة قد فقدت ثقتها بنفسها ، وغدت تبدو وجلة خائفة مجفل
لأقل حركة ..

وكانت لا تفتأ تتلفت حواليتها ، كأنما لا تثق بأي شيء ، وترتاب في
كل شيء ..

وهو إذ يذكر تلك الطفلة الصريحة الثابتة الجنان ، الرابطة الجاش ،
التي عمدها مع إيماء ، فإنما ليضيف حلقة جديدة إلى سلسلة التهم التي سيحاسب
كات عليها حساباً عسيراً ، يوماً من الأيام ..

فقد كانت ما أصاب الطفلة نتيجة لفرائز الأمومة المكبوتة في

نفس كات ا

وابتسم لها ما بكل في جهد لينال ثقتها ..

وقال في ابتهاج :

- لقد فكرت في أن الوقت قد حان لملتقي ثانية ، وتبادل بعض

الحديث ..

وكانت لا تزال متشككة إذ أجابت :

- عن اي شيء ؟

- عنك . هل انت راضية عن الذهاب إلى مدرسة داخلية ؟

فأجابت في اقتضاب :

- لست أبالي بذلك ؟

فأشعل لفاقة وراح يدخن لحظة ، قبل أن يسألها عرضاً :

- أتحبين عمك كات ؟

فاهتزت أهدافها في اضطراب ..

بينما كانت تفكر بدنها وهي تجيب :

- نعم ..

- هل انت على يقين من ذلك ؟

- نعم ..

وتأثرت مشاعره بملائم الشقاء التي تبدو في وجهها ، وأدرك ان نضالاً

عنيفاً يعمل في قرارة نفسها ..

فتابع حديثه في رقة بالغة :

- ألا تثقين بي يا آن ؟

فلم تستطع مراجعة نظراته ، وحولت انظارها إلى الباب الموصل ، فظلت

تنظر اليه طويلاً كأنما تتوق إلى الفرار ..

حق اذا ما تبينت تعذر ذلك ، عادت بأنظارها اليه وهي تتمتع في

صعوبة :

- بلى !

فضحك قائلاً :

- ولكن ليس كثيراً ؟

- لست ادري لماذا تلقي علي هذه الأسئلة كلها ..

- لأنني أريد ان اساعدك يا آن .. وليس ذلك في وسمي ما لم

تثقي بي ..

فأطبقت شفتيها في عناد بعد ان قالت :

- ألم اقل لك انني اثق بك ؟

وكان صبوراً معها ..

فمضى يقول :

- لقد وثقت بي يوماً من الأيام يا آن ، في امر بالغ الأهمية ..

- ماذا كان ذلك ؟

- حياتك يا آن .. هل تذكرين ذلك ؟

وللمرة الأولى واجهته بعينيها الزرقاوين ..

فأتلج صدره ، إذ رأى الدماء تعود إلى وجنتيها - وشبح ابتسامها

القديمة يتسلل إلى شفتيها وهي تضمهم :

- نعم ..

- حسناً .. لماذا قلت انه لم يكن مع والدتك أحد عندما رأيتها

آخر مرة ؟

فأجفلت الفتاة لهذه المفاجأة ..

وتصلب وجهها !

ثم قالت في تحد :

- لأنه لم يكن هناك احد ..

- ولكن هذا غير صحيح .. اليس كذلك ؟
فارتعدت وصاحت في صوت متهدج أشبه بالمويل :
- آه ! انني لا أدري ما الذي تريد ان أقوله .
- انني أريد فقط أن تصارحيني بالحقيقة ، حتى يتسنى لي أن
أساعدك . لقد كانت عميتك كات مع والدتك ، اليس كذلك ؟ أريد أن
تخبريني بكل شيء ..
فاستدارت آن في عجلة واسندت رأسها إلى المقعد ، وانثنت تحفف الدمع
بفضل رداثها المدرسي ..
وكانت تغغم في ضراعة :
- أوه ! دعني .. أرجوك أن تدعني ..
فمضى ما بكل نحوها وانحنى فوقها وهو يقول :
- ينبغي أن تدعيني أساعدك يا آن .. ما الذي جرى بين كات ووالدتك
قبل الحادث ؟
وكان ظهرها يعلو ويهبط في زفرات حارة متتالية وهي تجيب :
- إنه لم يكن حادثاً .. لقد كان كما لو كنت قد دفعتها بيدي
دفعاً ..
فصاح مشدوهاً :
- أنت ؟
وكانت تبكي في مرارة ، وتقول :
- كان ذلك كله نتيجة خطئي ..
- وكيف يمكن أن يكون كذلك ؟
- لقد كان كذلك ، بل لقد أدركت الآن أنه كذلك ، فقد انحزت ضد
والدتي ، ولست أبالي ما يحدث لي بعد الآن ..
فأحاطتها بذراعه ، وأضجعها فوق المقعد ، وهو يقول لها في

حنان وردة :

- ما الذي فعلته يا آن ؟ هيا .. ينبغي أن تتقي بي وتحبريني ..
فتعلقت به الفتاة بغتة ..

وتشبثت به وهي ترجف قائلة :

- اني لا أستطيع . لا أستطيع البتة ..
وكان صوتها خلوأ من التحدي والعناد الآن ، وكانت ترجف هلمأ من
خوف حقيقي عنيف ..

فقال الطبيب :

- بل ينبغي ..

فأجابت آن :

- لا أستطيع ، لقد جعلتني أحدهما بالآ أقول شيئاً ، وقالت انهم
يرسلونني إلى اصلاحية البنات إذا علموا بالحقيقة ..

فصاح في حدة لغرط الغضب :

- من التي قالت ذلك ؟ عمك كات ؟

فأومأت برأسها ..

وعندئذ أردف قائلاً :

- لا حق لها في أن تقول مثل هذه الأشياء .. انها غير صحيحة يا آن ..

غير صحيحة البتة !

وكان وجهه يفيض بالحنق والانفعال ..

ولكنه كان يخاطب الفتاة في هدوء حتى يرحي اليها بالثقة به ..

فقالت :

- لو لم أذهب لرؤية والدتي لما حدث شيء البتة .. فقد كان
الأمر مزحة ، كما قالت العمة كات ، إلا انني صدقته وانحزت ضد
والدتي .. و .. و

وكانت الدموع تلساب فوق وجهها في غزارة ..
فقال مايكل :

- ما الذي حدث يا آن ؟ خبريني بكل شيء .

فرددت الفتاة ، والقت عليه نظرة حيرة .
ثم ند عن صدرها قنهد عميق قبل أن تبدأ حديثها في سرعة ، وهي تتمتر فيه ..

كانت مقاومتها قد تحطمت وشعرت بارتياح عندما الفت نفسها تجد
الفرصة السانحة للتخفيف من عبء الكتان على صدرها ، وتقص عليه أحداث
تلك الليلة المروعة :

- كنت العب في حجرتي ، ثم ذهبت إلى والدي لألقي عليها تحية
المساء .. وكانت عمي وقتئذ تغادر حجرة والدي .. وكانت بأدية الحنق
والغضب ..

وانتظرتني عند قمة الدرج وذكرت أن لديها شيئاً تريد أن تقول لي ..
فجلسنا معاً على الأريكة الخشبية بالردهة خارج الحجرة حيث بدأت عمي
الحديث فقالت :

« إن والدي ووالدي سينفصلان عن بعضهما بالطلاق ، وإن ذلك كله
بسبب خطأ والدي .. وقالت ان والدي يحب رجلاً آخر ، وأنها ستهجرنا ،
أبي وأنا .. »

ومن خلال عبارات آن القصيرة ، رأى مايكل جويس أمامه صورة
واضحة لما حدث ..

صورة كات وهي تتحدث إلى الطفلة في عجلة ، وتصب في أذنيها
الواعيتين ، تلك الأكاذيب القاسية ..

ولا ريب ان إيماء قد فتحت باب حجرتهما في تلك اللحظة ورأت الاثنتين
جالستين معاً !

إذ مضت آن قائلة :

- ثم قالت عمي انني سأضطر للذهاب إلى المحكمة والشهادة بأن والدي كانت سيئة الخلق .. وبعد ذلك قالت شيئاً فظيماً عن والدي ..

وعندئذ طلبت اليها والدي - وكانت قد سمعت ما قالته العمة كانت عنها ، ان تنصرف وان تكف عن هذه الأقوال .. ثم امرتني والدي أن أمضي معها إلى حجرتها ، ولست أدري لماذا سلكت هذا المسلك ، ولكن الذي حدث هو انني رفضت الذهاب معها ..

وغدا في وسع ما يكل ان يرى الصورة أشد ما تكون جلاء ..
(إيما) في عنفوان غضبها ، لأول مرة في حياتها وهي تطرد كات خارج المنزل .

ثم تحاول ان تمسك بيد آن ، لتقودها بعيداً عن سماع هذه الأقوال البذيئة ..

فقد كان الأمر في هدوء حتى يوحى اليها بالثقة به ..

على حين كانت الطفلة وجلة مشدوعة ، وقد افزعها ما سمعته .
واذهلها مرأى والدتها وقد استبد بها الغضب بمثل ما لم ترها عليه قط من قبل ، وهي في مكانها متعلقة بكات ، متعولة عن أمها ، إلى تلك العمة ..

وقامت الطفلة :

- وكانت والدي تلوح شديدة الغضب ، فقد قالت عمي كات أشياء فظيعة عنها ، وكنت ارتعد فزعاً فوقفت بجانب عمي ، وعندئذ بدأت والدي تبكي في نسيج مرتفع ، وأسرعت عائدة إلى حجرتها حيث صفقت بايها في عنف ، فلم أرها بعد ذلك قط .

وأعولت الفتاة وعلا نحيبها ، وهي تستطرد :

- وكان ذلك كله بخطئي ، إذ صدقت ما قالته عمي ..

وهكذا تبين لمايكل الحقيقة أخيراً ..
ولكن على رغم علمه الآن بخلق كات ، فإنه ظل في دهشة من اسفافها
والخرف عقليتها وقسوة قلبها إلى هذا الحد ..

فقد اكتشفت ان إيمانها تقابل أحد الرجال ، فعلت ذلك بما يتفق مع
طبيعتها هي ..

وانتهزت الفرصة للحصول على بعض المال ..
وكانت تحاول ابتزاز المال من إيمانها بالتهديد في حجرتها ، فرفضت إيمانها
أن تصفي إليها !

ولكن كات نجشها ونذاتها استخدمت السلاح الذي تعرف أنه يصيب إيمانها
بأشد الألم ..

فراحت تسكب أكاذيبها في أذني الطفلة حتى سمعت افكارها ، وجعلتها
تنفر من امها !

وبذلك قتلت الحب والثقة المتبادلتين بينهما ..
فلما رأت إيمانها إشارة ان ، وتحولها عنها في نفور ، وانخيازها إلى جسانب
عنتها ، شعرت بأنها فقدت ابنتها إلى غير رجعة ، فعادت إلى حجرتها كسيرة
القلب ، محطمة الفؤاد ..

وبعد ؟

وسأل ان :

- ما الذي حدث بعد ذلك ؟

- قالت والدتي ان عمي قد اتلفت كل ما استطاعت اتلافه ، ولكنني
كنت أنا المذنبة حقاً ، لاني صدقتها .

فقاطمها في عجلة :

- ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟

فبذلت آن جهداً عظيماً لتستعيد سكونها ، واتمنع الارتعاد عن

شفتيها الشاحبتين ..

وكانت تهم بالكلام عندما فتح الباب بفتحة دفعة واحدة ..
وكانت كات تدخل الحجرة ..

فأسرعت آن تنزلق من مقعدها ، وتهرع إلى الركن الآخر من الحجرة ،
حيث تتململ في قلق وهي تحاول ان تختفي عن العيان ..
ولكن كات لم تضع لحظة واحدة في النظر اليها ، وإنما مضت نحو مايكل
رأساً وقالت :

- ما الذي أصابك بحق السماء ؟

ولو لم تكن قد أعماها الانفعال لتبينت في أساريه ذلك الحقد البالغ وهو
يحيب ببرود :

- يوسفني انني لم أستطع الحضور ..

- هكذا أرى .. ولكن أين كنت ؟

- لقد احتجزني عمل هام .

- حسناً .. ألم يكن في وسعك أن تتصل بي تليفونيا ؟ لقد ظلمت
انتظرك ساعة كاملة .

واشتد حنقها إذ رأتة يحرق النظر اليها في برود ونفور عجيبين ،
فصاحت مستطردة :

- لست أدري من تحسب نفسك ، انني لم اعتد دفع ثمن الشاي الذي
أتناوله من قبل ..

وعندئذ جرى على شفتيه طيف ابتسامة ..

فهي في دهشتها البالغة ، وحنقها العظيم لتركها تنتظر عبثاً بواسطة أشد
المعجبين بها حماسة ، لم تنس الحقيقة الدامغة ، وهي أنها قد خسرت في ذلك
بعض النقود ..

ومن ثم مد يده فأخرج حافظة نقوده ..

وفي قعدة غير مألوفة أو معمودة ، مد يده نحوها بورقة مالية وهو يقول :
- إن ذلك لما يسهل تدبيره ..
وظل برهة يعتقد أنها سوف تصفعه على وجهه ، إذ كانت حينها الضيقتان
الحبيشتان تنفشان سماً ناعماً ، وهي تحدج به بنظرات نارية ..
ولكن شيئاً في أساريره الصارمة أوقفها ، فاكتمت بأن تهتف من
فرط الغضب :
- اه اهكذا ؟
ثم استدارت محنقة وهتفت :
- هيا بنا يا ابن ا
والكزت الطفلة في ظهرها بقوة وهي تدفعها أمامها خارج الحجرة ..

الفصل العاشر

لم يكن علم مايكل بالحقيقة من أمر موت إيما ليبحث الراحة إلى نفسه وقلبه ..

فطلت قصة ان الأليمة تدوي في اذنيه ، كما راحت تعذب ذكري وجهها وقد ارتسمت عليه علائم الذعر والهلع ، بل ذكري وجهها ، هي وإيما ، يوم ان كان يلوح عليهما البشر والدعة ، قبل ان تعمل كات هوارد عملها ..

ولقد ماتت إيما الآن ..

وغدت طفلتها التي كانت تحبها وضعت في سبيلها بسمادتها (وسعادته) مخلوقة صغيرة منطوية على نفسها ، منكودة الطالع ، دون حاية أو سند ، تسير في طريقها نحو الجنون أو انهيار الأعصاب ..
أما كات ..

كات التي دمرتها كليها .. فلأنها تضي في طريقها وادعة ناعمة البال ، لا يضايقها أحد ، ولا يقلقها أسف أو رثاء ..

بل لقد خرجت من هذه الكارثة ، التي كانت سبباً فيها رابحة فاسية ، فهناك ذلك المرتب الذي خصصه لها أخوها - زوج إيما - للعناية بأمر ان والانفاق عليها ..

بل ليسمع الآن عبارة كات الفلسفية التقليدية :

(ينبغي لنا ان نعيش) ..
وتصلب وجه مايكل .. فإن إياها - مع ذلك - قد حرمت حق
العيش ..

وامتدت يداها في غير وعي إلى المعزف ..
فانطلق بعض ما يعمل في نفسه من حقد مرير وغضب متأجج ، انغمساً
كقصف الرعد حيناً ، وكالأنين حيناً آخر ..
ولكن ، معها كانت محاولته ، فلمنه لم يستطع أن يروصد عقله دون ذلك
الفكرة التي راحت تطرق تفكيره طرقاً عنيفاً متتالياً .

كان يفكر في أن يقتل كات هوارد ..
لقد أبعدت آن عن أمها بتشويه الحقائق في ندالة بالغة ا
وبهذا السلاح الفتاك ..
سلاح الغدر والوقعية .
قتلت إياها ، كما لو أنها قد فنكت يها بيديها ..
بل انه ليس واثقاً كل الثقة من أنها لم تستخدم يديها حقاً ، ومع ذلك فإن
التفاصيل لا تهمة الآن ، وكفاه ما يعرفه ا
وهو يود من صميم فؤاده ، أن تظل كات بعيداً عن طريقه ، من أجل
سلامتها وأمنها ا

فلو راها ، لما استطاع أن يبقي يديه بعيداً عنها ..
إن مسز هوارد لم تشعر بشيء من الألم حتى الآن ..
ولكنها عندما تقع بين يديه ، ويظل يضغط على عنقها ليستل الحياة منها
فسوف تشعر وتحس بما قدمت بذاها ..

سوف يجعلها تذوق الألم كؤوساً مزرعة ، كما أذاقته لايماء ..
وعندئذ أخذته رعدة قوية ..
فما ينبغي أن يفكر في شيء كهذا ..

وراح يعزف أنشودة إيمان الخفيفة :

(سيدتي .. هل لك أن تسيري)

ولكن وجهه كات بدا أمامه منعكساً على صفحة المعزف السوداء المصقولة
يبتسم في وجهه ابتسامة أقرب إلى السخرية منها إلى التلطف ..
فمضى يعزف في حماس واستغراق ، ليبعد شبحها عن تفكيره ، وراح
ينمى في بؤس وأسى ألا يراها قط بعد الآن ..
لعله ينجح في القضاء على نزعة الانتقام الجنونية التي تخالجه في قوة
رحمة ..

وسوف يفعل الزمن فعله ..

فيلسى كات ..

ولا يذكر بعد ذلك غير إيمان ..

إيمان الطاهرة الطيبة !

* * *

ونفذ إلى سمعه ، خلال الموسيقى ، رنين جرس يدوي في أرجاء المنزل .

وكان يبدو أنه يدق منذ برهة طويلة ..

فتوقف عن المعزف .. وكان السكون شاملاً في المنزل ، إذ كان الخدم قد
أدوا إلى فراشهم .

وسمع رنين الجرس ثانية ..

وكان جرس الباب الخارجي .

فأوحى إليه غريزة المهنة بما عساه أن يكون .. لا ريب أن حادثة قد
وقعت ، وإن أحداً في حاجة إلى طبيب فمضى يهبط الدرج على عجل ويفتح

الباب الخارجي ..

وإذا بكات واقفة أمامه ..

وظل برهة لا يكاد يصدق ماظريه ، بينما تحول في غير وعي يسد عليها
سبيل الدخول .

فسمعها تقول في انفاس لاهثة :

— أرجو أن تدعني أدخل يا مايكل ، إني أود أن أتحدث اليك ..

فقال في برود :

— إن الوقت متأخر الآن ...

فقالت مسر هوارد :

— لن يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ..

ثم شقت طريقها إلى الردهة !

فقال لها :

— ما الذي تريدين قوله ؟

وجعلها صوته تلتفت نحوه في عجلة ، قبل أن تقول :

— ولكننا لا نستطيع أن نتحدث هنا ..

وأسرعت تجتاز الردهة وترتقي الدرج ..

وإذا كان يتبعها ، استقرت نظراته على عنقها الناصع البياض تحت جدائلها

السوداء الفاحشة !

يا لله ، ما أسهل أن ينزع الحياة منها للتو واللحظة .

بل ان يديه لتتقلصان ، وأصابه لثلاثي كأنما يريد أن تطبق على هذا

العنق الختال !

وعندئذ ، اطبق كلتا يديه على سياج الدرج ، وهو يرتجف من هول

من هول الرغبة التي استبدت به ، ومن الجهد الذي يبذله لكبت هذه

الرغبة وسمعتها

وكانت هوارد تلجح معطف الفراء الذي ترتديه ، عندما ولج قاعة الاستقبال ..

فتحولت نحوه في الحال ، ورقعت اليه وجهها في ضراعة وهي تقول له :

- لقد أدركت اني كنت حقاء إذ غضبت منك بعد الظهر ، فلا ريب أنك كنت منكباً على العمل ، ولم تكن لك حيلة في الأمر ..
وانتظرت لحظة وهي فتوقع أن ترى ابتسامته وتسمع اعتذاره ، ولكنها بدلاً من ذلك سمعته يقول في خشونة :

- هل هذا ما قدمت خصيصاً لقوله ؟
وفي وحشية غريبة أردف :
- حسناً .. لقد قلته الآن ، طابت ليلتك ..

فقالت كات لنفسها :
- يا إلهي ! إنه متعريف المزاج الليلة ..
ومع ذلك ، فإن هذه الحالة التي تجعل مايكل صعب المثال ، أثارت في نفسها رغبة الانتصار والغزو .
فاستطردت تقول في لين :
- ألا زلت غاضباً مني ؟ أرجو ألا تكون كذلك .
ثم مدت اليه يدها البضة ..
ثم اردفت :
- دعنا ننسى كل ما حدث ونعود أصدقاء ثانية !

فأولاهما ظهره ..
ولكن ذلك لم يفت من عضدها ، ورأت من البراعة ألا تدع لكبريائها سبيلاً الآن ..
وغنم يقول :

- اني لا أريد أن اراك بعد ذلك يا كات ا
يا لله ا .
ألا تفهم الحقيقة فتتنصرف وتدعه قبل أن يفوت الأوان ؟
وكانت نبرات صوتها متهدجة وهي تقول معاتبة :
- أواه يا مايكل ا من أجل شيء تافه كهذا ؟
ولم يكن ينظر اليها ..
ومع ذلك ، فقد أدرك انها تمثل في براءة ، فقال :
- كلا .. فليس لذلك شأن بالأمر ..
- ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى معاقبتنا كلينا لا لشيء سوى انك
غاضب مني ..
فأجاب الطبيب :
- هل ترين انني أعاقب كلينا ؟
فتحيرت كات .. وبعثت النظرة الحادة الثاقبة التي حددها بها ،
الرعدة في اوصالها ..
كان وجهه صارماً شديد الشحوب ، وكان بدنه يرتجف بشكل على نحو
لم تره من قبل ..
ترى ، ماذا دهاء بحق السماء ؟
وأمنت التفكير برهة ، وإذا بضوء الفهم ينبثق أمام ناظرها ،
فقال في زهو :
- مايكل ا انك تريد ان تقطع صلتك بي لأنك رجل متزوج ؟
فلما فهم غرضها ، كاد ينفجر ضاحكاً ..
يا لله ما أشد غباءها ؟
إن زهوها الأعمى لا حيلة ا
وتابعت حديثها :

- قد يكون ذلك منتهى الشهامة ، ولكن أود ان تعرف اني لا أبالي
بمثل هذه الاعتبارات !

ودنت منه وازدادت به التصاقاً حتى كادت رأسها تلامس كتفه ، بينما
وضعت يدها فوق ذراعه وهي تستنرد :

- انني لا أبالي بما يقول الناس او يظنون ..

وتصلب بدنه للمامستها ..

وما لبث أن استدار وواجهها .

كانت شديدة الالتصاق به ، بحيث لا يمكنه أن يعتمد عنها ، فقد كانت
يدها متعلقتين بسترته وهي تهمس :

- ما بكل ! ألا تدرك ما احاول ان اخبرك به ؟ اني اريد أن أبقي

معك ، مهما كانت الظروف ..

وظل برهة طويلة يتفرس فيها دارساً متفحصاً ..

فرأى شفتيها الأرجوانيتين تنفرجان ، كأنما تدهوانه في رغبة
واشتهاء ..

كما رأى عينيها تتألقان تحت أهدابها الطويلة السوداء ...

وسرى الاشتزاز في بدنه ..

لكنه قال :

- أتريدن ذلك حقاً يا كات !

فتنهدت في حرارة ومهت :

- دائماً ، وإلى الأبد يا عزيزي ..

فأحس فجأة بارتياح عميق ، لقد استطاعت كات أن توحى اليه
بالفكرة التي كان ينشدها .

استطاعت أن تجعله يستقر على رأي حاسم ..

وعندئذ فارقه انفعاله ، وعادته السكونية والهدوء ..

فلسوف يقتلها ..
غير انه سوف يختار الوقت الملائم للفتك بها ..
وعندئذ قال :
- سيكون لك ما تشائين يا كات !
ولم تسمعه يخاطبها بمثل هذه الرقة من قبل .
وأحاطت ذراعا كات بعنقه في قوة ..
بينما المنى فوقها وقبلها ..

الفصل الحادي عشر

راح جويس يدبر في هدوء شامل وسيلة تنفيذ فكرة الانتقام التي سيطرت على عقله ومشاعره هذه المدة الطويلة ..

وكان شديد العناية بنخطته في أدق تفاصيلها ..
وقد رتب الأمر مع مساعده ، بحيث يتولى الاشراف على المستشفى والعناية بالمرضى .. بعد ان اعلن انه سيرحل بعض الوقت في اجازة قصيرة ..

وقد رحبت مسز هوارد باقتراحه أن يمضي معها بعيداً ، لفترة من الزمن ..

وكانت في تلك الأيام تتفجر حيوية ، فتفيض بالبشر والسرور ، فقد كان ولعها بالأسرار والخفايا الغامضة شريان الحياة بالنسبة لها ، وكان في مايكل شيء غامض يثير انفعالها وفضولها ..

فهي لا تعلم فم كان يفكر خلال فترات الصمت الطويلة ، عندما ينتابه ذلك الوجوم ويظل شارد الفكر ساهماً ..

وشمرت بأنه يكتم شيئاً غريباً غامضاً ، فعولت على أن تكتشف جلية الأمر ..

أما مايكل فلم يكن يحس بوجودها ، أو يشعر بقربها منه ، كان يراها

كثيراً ، ولكنها لم تعد تضايقه الآن ، فقد انصرف فكره بأكمله إلى الخطوة التي كان يديرها !
وزار المستشفى للمرة الأخيرة ..

وكانت أدراجه الطبية ، ومعدات الجراحة الخاصة به قد وضعت حقائبها في سيارته !

فصافح الأطباء والمرضات مودعاً ، بينما كانوا يتمنون له اجازة طبية ، ولم يبق أمامه سوى عمل واحد قبل أن يبدأ مغامرته مع كات هوارد !

وكان ذلك عملاً عادياً ذا طبيعة دراسية .

* * *

وفي قاعة المحاضرات ، كان صوت المحاضر يخفت شيئاً فشيئاً ، وما لبث أن نظر إلى ساعة معصمه .

ثم دس يديه في جيوبه ، وغطا فوق المنصة خطوة أو اثنين في ببطء وقمل ..

وكان الطلبة يجلسون مشدوهين في سكون ، كأن على رؤوسهم الطير ، فتعلقت أنظارهم به ..

على حين جذبت الفتاة التي حضرت متأخرة نفساً عميقاً وهي تقول في نفسها :

(يا له من محاضر ! ويا له من استاذ بارع في التحليل النفسي ! انه يتكلم عن ثقة ويقين ، ويفيض بالشرح في تحليل نفسية أبطال هذه القضية تحليلًا دقيقاً ، يخليل معه إلى المرء انه يعرفهم معرفة وثيقة) ..

ومضى المحاضر يتابع حديثه وهو يردد عبارته الأخيرة :
 - كان ذلك عملاً عادياً ذا طبيعة دواسية .. وبينما كان قائماً
 بأدائه ، راح عقله يستعرض التفاصيل الدقيقة لمراحل تنفيذ هذه
 الجريمة ..

ثم تمهل من جديد ..
 فقالت الفتاة في نفسها :
 (انه لم يعد طلق اللسان ، كما كان من قبل .. بل انه ليبدو كأنما
 يبحث عن الألفاظ وينتقيها انتقاء .. اتراه ادركه الكل بعد أن ظل يتحدث
 أكثر من ساعة بلا انقطاع ؟)

* * *

وعاد يقول :
 - فلم يجد في تدبيره ثغرة واحدة ، وكأنما اصطلمحت الظروف جميعاً
 على تيسير الأمور له ، فلما فرغ من عمله ، قابلته كات هوارد في المكان
 الذي قواعدا على اللقاء فيه ..
 وكان الظلام قد أرغى سدوله عندما انطلقت بها السيارة تجتاز شوارع
 لندن ، في طريقها نحو الريف ..
 واستغرقت رحلتها نحو ساعة ، كانت هوارد خلالها بأدية المرح ، لا
 تكف عن الكلام كمادتها .. ولم تكن تعرف شيئاً عن وجهتها ، حتى بلغا
 منزل (إيمان) !
 فقال انه يريد أن يراه ، ما دام معروضاً للبيع ، فتقبلت هذا الطلب
 دون اعتراض ..

وكان يعلم أن أحداً لن يلي نداء الجرس الذي راح يقرعه طويلاً ، فهو يعلم أن كلاي الحارس ، يمضي ليلة الجمعة عند أخته ، ومن ثم فلم يكن ما يكل يخشى أن يضايقه بوجوده ..

وكانت النافذة المجاورة للباب الرئيسي لا تزال محطة الزجاج كما تركها ، فأفنع كات بتسلقها ، حيث تبعته إلى حجرة إيمان بالطابق العلوي ..

ومضى إلى نافذة الحجرة ..

وجذب الأستار عنها !

وفي هدوء تام ، أخبرها بأنه هو الرجل الذي كانت إيمان تحبه ، وأنه يعلم بأنها مسؤولة عن مصرع إيمان !

وتلكنها الذعر ..

ولكنها كانت عاجزة أمامه ..

وعندئذ أخبرها بأنها سوف تموت بنفس الطريقة التي ماتت بها إيمان ، ثم أمرها بأن تلقي بنفسها من النافذة ..

بل كأنما شل الفزع حواسها ..

فلم تستطع الحراك ..

فقاومته برهة !

بدأت تصبح مستغيثة ..

ولكن لم يكن ثمة أجد من البشر على بعد ميل من المكان ، ولم يكن ثمة أمل في أن يلي أحد استغاثتها .

وأخيراً مضت كات إلى حتفها ، وموت في الفضاء إلى الفضاء المجري أسفل النافذة ، حيث استقرت جثة هامة محطمة . كما استقرت إيمان يومئذ من الأيام ..

وكان من الانصاف أن تموت كات بالطريقة نفسها ..

وهكذا حق عليها القصاص ..

وأخذت العدالة مجراها !
وتقبل المحاضر قليلاً ، وقد بدا عليه الاحياء فجأة كأنما انهكت القصة
للطويلة قواء !

وما لبث أن ختم محاضره قائلاً :
- وكانت هذه جريمة قتل ارتكبت بواسطة شخص سليم العقلية ،
ونفذت في براعة دون أن يمتورها نقص أو خطأ ..
ونظر إلى ساعة معصمه ..

ثم أردف :
- أخشى أن اكون قد استغرقت في سرد هذه للقصة وقتاً
طويلاً أكثر مما ينبغي .. ولذلك سوف ترجى المناقشة العامة في موضوعها
إلى المرة القادمة !

ثم اولاهم ظهره ..
إيداناً بالانصراف !
ومضى الى المنضدة فعلاً لنفسه قدحاً من الماء .
بينما كان الطلبة يطون مذكراتهم وكتبهم ، وهمون بمغادرة القاعة وقد
وقف معظمهم قريباً من الباب .

ونخم السكوت بفترة ، عندما انبعث صوت من مؤخر القاعة يقول
للمحاضر :

- هل لي أن أسأل سؤالاً يا سيدي ؟
فتحولت الرؤوس جميعاً نحو ذلك للشاب الجريء ، الذي فاه بهذه
المباراة ..

على حين رشف المحاضر جرعة من الماء ، وعاد إلى مقدمة المنصة
والقدح في يده ..

فقال :

- نعم ..

فسأل الشاب :

- اظن ان أحداً لم يشك في القاتل قط ؟

فأجاب المحاضر :

- كلا .. فلم يجد البوليس دليلاً أو قرينة تدل على شيء سوى

الانتحار ..

ومضى الطالب قائلاً :

- ومع ذلك ، فلا ريب انه كسائر المصابين يمنون العظمة ، قد

اخبر أحداً بما فعل ..

فأجفل المحاضر قليلاً ..

وقطب حاجبيه ا

ثم قال في خدة :

- معذرة .. فلم أفهم غرضك تماماً ؟

- لعله هو الذي اخبرك بذلك .

فلاحت على شفهي المحاضر ابتسامة خبيثة ، واجاب :

- نعم ، فقد كان أحد مرضاي ..

- في مستشفى للمجانين !

- كلا ، كان سليم العقل تماماً ، كان لا يقل سلامة ..

ثم اضاف في شيء من التوكيد :

- عني أنا ..

وساد الصمت برهة كان الطالب خلالها يبدل قدميه في ارتباك ، تحت

نظرات المحاضر الثاقبة ، وقد خيل له انه لم يحسن القول ..

واخيراً قال معتذراً :

– ارجو ألا اكون قد اخطأت بسؤالي هذا !
وكان صوت المحاضر طبيعيا وهو يجيب :
– كلا البتة .. بل لقد كان سؤالاً طيباً .
وغادر الطلبة قاعة المحاضرات ..
بينما جمع المحاضر كتبه وقبعته وقفـازيه في عجلة ، واسرع إلى سيارته
المستقرة في فناء الكلية !
فلم يبق أمامه إلا القليل من الوقت الآن .
فقد كان المحاضر ..
مايكل جويس نفسه ..
وكانت قصته لم تـم بعد فصولها !

الفصل الثاني عشر

غادر مايكل جويس سيارته على مقربة من فندق اركاديا ، وراح يدخن لفافة وهو ينتظر قدوم كات ..

ولا ريب أنها ستتأخر عن الموعد ، كماداتها ..
فلما تحب أن تدع الرجال طويلاً في انتظارها ، ظنا منها بأن ذلك يزيد من قدرها ومكانتها ..
ولكن لا بأس !

فقد ادخل تأخيرها في حسابه ، عندما حدد مراحل خطته .
وعاد يستعرض دقائق تلك الخطوة ، حتى اقتنع بأنه لم يفعل شيئاً ، أو
أويدع شيئاً للظروف الطارئة .
وأنت كات مسرعة ، بعد عشرين دقيقة من موعدها .

فقال مبتسمة :

— هل انتظرتني طويلاً ؟

ودون ان يعبأ بالرد عليها ، فتح لها باب السيارة ، وتناول حقيبة ثيابها
فوضعها في القسم الخلفي .

ثم جلس أمام عجلة القيادة ، يجوارها ..
وظلت انظاره متجهة أمامه وهو يقود السيارة ، ولكنه كان منتصباً

لكل حركة تأنيها وهي تجلس في مكانها بجانبه ، اذ كانت حواسه شديدة التحفز والانتباه هذا المساء .

وكان شعرها قد عقص في افاقة تحت الشملة الحريرية التي تربطها فوق رأسها ، كما كان وجهها مصقولا بحم الطلاء ، وأظافرها تتألق بلونها الأرجواني البراق ، حتى لقد فكر مايكل في انها قد قضت يوماً بأسره في صالون للتجميل !

بينما التفت في معطف من الفراء فوق ثوب جديد انيق .. وكانت تنبعث منها رائحة عطرية ثقيلة ، نفرت منها نفسه ، ولكنه لا يستطيع أن يلومها ، إذ كانت لا تعرف كيف تختار أو تستخدم الروائح العطرية ..

ونظرت كات هوارد إلى حقيبتها في مؤخرة السيارة .
ثم سألت :

- لست أدري إلى أين نحن ذاهبان ، ولكنني اعزم أن أوطن نفسي على الراحة في أي مكان نذهب إليه .
- سوف ترحلين حقاً ..

فصفقت يديها طرباً ، وصاحت كأنها طفلة صغيرة :
- آه .. هي مفاجأة إذا ؟

وراحت تتأمل الشوارع المزدحمة ، والحوانيت المتألثة بالضياء ، بينما كانا يمضيان في طريقهما قدماً ، وقد تملكها شعور من الانفعال والسرور ..
إن هذه الرحلة مع مايكل سوف تكون مسلية إلى حد بعيد ، ولكن ترى أي فندق اختاره لتزولها ؟

إنها لترجو الا يكون اختياره قد وقع على احد تلك الفنادق الريفية القديمة ، ذات الأثاث الأثري المتيق ؟
فقد كان يصحبها إلى أفخم المطاعم وأعظم الملامح حتى الآن ، ولكن

بعض المحبين ، متى غادروا لندن ، تهفو نفوسهم إلى الفنادق العتيقة ، إنها تعرف ذلك من تجاربها المروعة السابقة .

وفجأة صاحت به بحفلة :

- لقد اخترقت إشارة المرور الحمراء ..

فأجابها في صوت أجوف :

- هل فعلت ذلك حقاً ؟

فنظرت اليه في عجب ..

لقد كان يقود السيارة في سرعة خارقة ، وكان يبدو كأن حراسه قد تركزت أمامه في الطريق ..

ومع ذلك فلم يكن من عادته أن يحتاز إشارة المرور الحمراء .. وكانت أساريه جامدة صارمة .. ويلوح مستغرقاً في أفكاره وشواطره ..

ولكنها ابتسمت لنفسها ..

ثم دنت منه حتى لامست ذراعها ذراعه .

واندفعت السيارة تشق سبيلها في الطريق الزراعية ..

وكان منظر الحقول المتشابهة وحركة المحرك الرتيبة ، قد جعلت هوارد تشعر بالنعاس ..

وبعد لحظة راحت تمشط شعرها الذي عبت به الهواء .

فلما فرغت من ذلك مضت تصلح من طلاء وجهها وشفتيها ، وما لبثت أن قالت في مرح :

- هل تمقت النساء اللواتي يصلحن زينتهن في الطريق ؟

- انني لم أفكر في ذلك من قبل ..

-- لقد رميت الي أن أفتح موضوعاً للحديث ، ولكن لعلك تفضل أن يتحدث عن نفسك ، فهاذا كان موعدك هذا المساء ؟

- كنت القبي محاضرة في علم النفس الجنائي .
- حسناً ، ماذا كان حديثك في هذا الموضوع ؟

فأجاب في ببطء :

- لقد حدثتهم بقصة رجل قتل امرأة بفرض الانتقام ..
- لا ريب انه كان مجنوناً ..

- كلا .. لقد كان محتفظاً بقواه العقلية كاملة ..

- هراء ! فأولئك الناس الذين يأتون اعمالاً عنيفة ، يكون لديهم انحراف
من نوع ما ، مهما بدوا طبيعيين عاديين ، انظر إلى إيما مثلاً ..
فسأل :

- إيما ؟

وكانت الكلمة قد اندفعت من بين شفثيه كالقذيفة دون أن يشعر ،
فذكرته قائلة :

- نعم .. زوج أخي ..

وبدأت يداها ترتجفان عندما سمع اسمها ، ولكنه شدد القبض على عجلة
القيادة .

وجهد في ان يبدو صوته طبيعياً وهو يقول :
- وما علاقتها بهذا الموضوع ؟

- حسناً .. لا ريب ان قد اصابها الجنون حتى تقسدم على عمل مروع
كالانتحار .. كانت تبدو سليمة العقل ، ولكن عندما بلغ الأمر حد
الآزمة ..

فسألها قائلاً :

- ما الذي يجعلك تقولين انها انتحرت ؟ لقد كان نادة عارضا ..
فأجابت هوارد :

- كلا .. إنها هي التي ألقت بنفسها ، ومن الواضح ..

وكان صوتها ينم عن ازدراء لا يما .
وربما له ايضاً ..

إذا صدق القرار الذي أصدره المحقق ، وما لبثت أن مالت على كتفه
قائلة في رقة :

- ولكن دعنا لا نتحدث عنها الآن .

واستقرت نظراتها فجأة على جانب الطريق ، فانبعثت منها صيحة
حاددة ..

فسألها :

- ماذا هناك ؟

- لقد ظننت لحظة ، ان هذا هو ذلك المعبد الفظيع القريب
من منزلها !

وعندئذ قال لها :

- إننا ذاهبان إلى هناك ..

فابتعدت عنه بغثة ..

وقالت كأنها لا تصدق مسمعا :

- إلى منزل إيمان ؟ لماذا ..

فأجاب دون أن يلتفت نحوها :

- ألم تقولي انه معروض للبيع ؟

- انه كذلك ..

- حسناً .. ربما فكرت في شرائه !

فصاحت في صوت حاد :

- آه ! انه مكان بغبيض ، وسوف تسمع تلك الأنغام الجهنمية المنبعثة

من المعبد ..

وكان مايكل يفكر في نفسه !

كم كان غريباً ، ان تلك الموسيقى التي كانت إيماءات راح اسماها ، ولكن
اليها ، تحدث أرواحهم في نفس كات .

واستطردت تسأله :

- ولكن ما حاجتك الى منزل ريفي ؟

- هذه هي احدى النواحي المجدبة في طباعي ..

فمنظرت اليه متفلسة في الظلام ، ولكنها لم تستطع أن تستشف شيئاً
من اساره ..

فتضاخكت قائلة :

- ألا تكف عن هذا الهذر ؟ يا له من وقت غير ملائم لزيارة منزل
معروض للبيع ، لا ريب انك قد جننت ..
وكانت تمزج ..

فلم تكن كات تبالي بالنزوات الغريبة لأحد الرجال ، متى كان وسيم
الطلعة كهذا الرجل الجالس يحوارها .
ودفع مايكل السيارة في الممر المؤدي إلى منزل إيماء ، ثم وقف في الظلال
المظلمة ، بجوار الباب الرئيسي .

وأوقف المحرك ، وأطلق أنوار السيارة ، ثم هبط منها ودار حولها ، ففتح
الباب المجاور لكات قائلاً :

- تعالي ..

ولكنها ظلت مكانها ، لا تريد ان تخرج في الظلام ..
ولم يكن مايكل يريد ان يلقى منها شيئاً من المتاعب الآن ،
فقال لها :

- انني أريد ان اريك شيئاً معيناً ، ولن يستغرق ذلك منا
وقتاً طويلاً ..

فتبعته نحو المنزل ، حيث راح يحاول فتح بعض نوافذه ، ولكنها كانت

جميعاً موصدة ..

وأدته خلال الظلام :

- ماذا تفعل بحق السماء !

- اني ابحث عن نافذة مفتوحة !

لا داعي لذلك ، فلا ريب ان البستاني هنسا ، اذ انه يقوم على حراسة

المنزل الى ان يبيع ..

ووجد مايكل النافذة التي حطمها في المرة الأخيرة ..

فمد يده وفتحها على مصراعها ، ثم اشار الى موارد أن تتسلقها ،

قاتلاً :

- لقد وجدت منفذاً هنا ..

فصمكت في انفعال ، ثم هزت كتفها قائلة :

- لا بأس من ارضاء عالم جنائي !

ورأى ساقها الطويلتين النحيلتين يتألق بياضهما الناصع في الظلام ، وما

لبث أن اختفت !

فتبعها بدوره إلى الزدمة الحالكة المظلمة ..

وكان المنزل الباردة والرطوبة في ذلك الوقت من الليل ..

وقد شعر برائحة الموت والفناء تملؤه الآن ، بمد ان طال غياب

ايها عنه ..

وقالت موارد :

- انتظر لحظة ريثما أضيء المكان !

ولكنه أصرح يقول :

- كلا .. كلا لا تفعل ، وإلا أفسدت روعة المغامرة !

ولم يكن يستطيع رؤيتها ..

ولكنه أيقن انها تبسم ، اذ قالت له :

- هل تريد أن تقدم على مغامرة غرامية معي ؟
- أيضاً يملك ذلك ؟
- كلا .. ففي وسعي أن أدافع عن نفسي !
وضحك في جذل وقد سرها ان يتحول الحديث اخيراً إلى هذه
الوجهة المعادية
ثم اردفت :
- إلى أين تريد الذهاب أولاً .. دعني ارشدك ، فلاني أعرف المكان
جيداً ..
- إلى الطابق العلوي ..
وأشعل هوداً من الثياب ، فضت كات أمامه ترتقي الدرج وهي لا تزال
تتحدث عن المنزل قائلة :
- انه مكان بغيبض ، ولست اتصور كيف تفكر في سكناه ، لقد كنت
أمقته دائماً !
ودون ان تشعر ، راح مايكل يمر بها امام الحجرات الأخرى ، حتى بلغا
حجرة ايما ، فوجداهما معاً حيث اغلق الباب خلفها في هدوء ، ومضى إلى
النافذة ، فاجذب الستار عنها .
وعندئذ تدفق ضوء القمر خلالها ، وقال :
- هذه هي حجرة ايما !
فهاالت في غير اكتراث :
- نعم ..
وما لبثت ان اضافت بحفلة :
- ولكن كيف علمت ؟
- لقد جئت إلى هنا قبل ذلك ..
وكانت تقف في مؤخرة الحجرة بعيداً عن النافذة .

فسألت في عجب :

- لماذا دعوتها ابناً فقط الآن ؟

- لأنني كنت ادعوها كذلك من قبل ..

وسار في بظء حتى دنا منها كثيراً ..

وكانت تنتظر ما يقوله ، ولكنها لم تتوقع قط ان تسمعه يسألها في اهتمام :

- اخبريني ما الذي جعلك تعتقد ان لايماً عشيقة ؟

فبدأ النفور والبغض في عينيها .. يا له من وقت غير ملائم للتحدث

عن لايم !

وأخيراً أجابت :

- لقد فاجأت حديثاً بينهما في التليفون !

ولم تفكر في الانسار ، بل استطردت تقول في جرأة :

- وقد استرقت السمع من (التوصيلة) .

- وهل تبينت صوته ؟

فهمزت كتهفها في ثبرم ، وعيناها تجولان في الحجرة وقالت :

- اني لم اهرقه !

فراح يتطلع اليها طويلاً بعينه السوداوين الشاقبين حتى ارغمها على تركيز

حواسها معه ، قبل ان يقول في أسى :

- ولكنك تعرفينه الآن !

فاتسمت عيناها دهشة وذهولاً ، وغاضت الدماء من وجهها ، وظل فمها

فاغراً كالبلهاء قبل ان تمغم :

- أنت !

وكان ما بكل يستمتع بهذه اللحظة ..

فوجئت هوارد وفقدت اتزانها ، وانه ليرى ذلك في النظرات الهيابة التي

تحدجه بها ، وفي نور جسمها ، وهي تقف امامه واضمة يديها في جيبي

معطف الفراء الذي ترتديه ..

واستطرد يقول :

- هل تصورت حقاً ان هذا الرجل - هذا الحبيب كما شئت أن تسميه -
يقبل قصة موت ايما على علاقته ويصدقها دون ان يحاول معرفة كيف حدث
ذلك حقاً ؟

وانقلب وجهه واشتدت صرامته ، عندما أردف :

- إنك من الغفلة بمثل ما انت عليه من القصور يا هوارد !

ودوت الكلمات في اذنيها دون أن تفهمها ..

فقد ألجمها الذهول وشل حواسها حتى لم تعد تستطيع حراكاً عندما
رأت التغير الذي حل به ، وذلك التحول الغريب الذي اتخذته حوادث
تلك الأمسية ..

بل لقد كانت تنظر اليه كأنها في حلم ، عندما ذرع الحجرية إلى الباب
فأدار المفتاح في القفل ، ثم أخرجه منه ..

ورأت وجهه عندما تحول عن الباب ..

رأت ذلك الحقد الوحشي مرتسماً في أساريه الجامدة ، قطارت نفسها
شعاعاً من فرط الفزع ، ولكنهما فطننت إلى حقيقة الموقف فأأادها ذلك
إلى الصواب ..

وأسرعت تعدو كالحمومة في الحجرية ، مندفعة نحوه ، ثم اختلطت
المفتاح من يده بينما كان يهم بوضعه في جيبه ..

فارتد إلى الخلف خطوة ، غير أنه سقط من بين أصابعه ، وإذا بكات
تلقي بنفسها على الأرض فتغطي المفتاح بحسها ..
وقمقه مايكل ضاحكاً ..

بينما نهضت من سقطتها متعثرة ، وهي تمسك المفتاح في قوة ..

فسألها في تهكم :

- علام كل ذلك ؟
فلما استطاعت النطق ..

قالت لاهئة :

- لأنني لا احب ان ابقى في حجرة موصدة مع شخص مجنون .
- لا تكوني حقا ، ففي استطاعتي ان احصل على هذا المفتاح منك
حيثما اشاء ..

وكانت تعرف انه يقول حقا ..
ولكنها اطمأنت قليلا إذ سمعت قوله ورأت ابتسامته ..
وزالت عنها رجفة الخوف الأولى ..
كان مايكل الآن ، عندما ضحكك يبدو كعبد ..
كالرجل الذي طالما أحاطها برعايته وتدليله ، وأغدق عليها من
ودده وحنانه ا
والذي إذا صدق حديثها ، أخذها في تلك الرحلة ليطارحها الفرام .
وكان يضي نحو النافذة ثانية ..

بادي الهدوء والسكينة ..
وراح يستنشق هواء الليل البارد ، ويجول بعينيه في المناظر المحتشدة
أمام ناظره ..
حتى استقرت نظرائه على المعبد القديم في الناحية الأخرى من
الوادي ..

وما لبثت أن تحولت ..
دون وعي ا

الى الفناء الحجري أسفل النافذة ..
وإذا بذلك الشعور العجيب يعاوده مرة أخرى ، فيحس كأنه يهوي
إلى الأعماق ، والهواء يصفر في أذنيه ، والمناظر تدور حوله في سرعة

خارقة ، فلا يميز منها إلا حجارة الفناء المربعة ، وهي تصعد نحوه
للقاتله !

ولم يطل به هذا الشعور أكثر من ثانية واحدة ، إذ كانت هوارد لا
تزال في الحجرة المظلمة خلفه عندما ارتد إلى وعيه .

فقال لها :

-- تعالي إلى هنا يا هوارد ..

فخطت صوب النافذة بضع خطوات ، على غير وعي ، كأنما كان في
صوته قوة أمرة لا تستطيع مقاومتها ؟

وعندئذ اردف وهو لا يزال ينظر إلى الأسفل :

- لقد سقطت أيما هنا ، اليس كذلك ؟

فأجابت :

- لست أدري ، فلم اكن هنا .

فاستدار نحوها بفتنة ، وقال :

- سيان ، فأنت في نظري كأنك بقيت هنا حتى دفعتها بيديك .

وكان صوته يدوي في الحجرة ويفيض بالاثام ، على حين كانت عيناه

تقدحان شرراً ..

وعندئذ احست هوارد بالفرع يعاودها من جديد .

فتحوات واسرعت تعدو نحو باب الحجرة ، وحذاوها العالي يتعثر في

السجاده السميكة التي تكسو الأرض ..

ولكن مايكل سبقها إلى الباب في وثبتين طويلتين ، ثم اسند ظهره

اليه وسألها :

- إلى أين تريدان الذهاب ؟

فغمغمت تقول في صعوبة :

- سوف اعود إلى المدينة .

وعندئذ امتدت يده وأطبقت على كتفها ، فأحست بأصابعه قلش في عظامها رغم قويا ومعطفها السميك ..

بينما كان يستطرد :

- هل تعلمين ما أنا صانع بك يا كات ؟

فجرت بلسانها على شفيتها الجافتين .

ثم قالت :

- إذا لم تدعني فسوف أصبح مستنجدة ..

فرد ما بكل :

- هيا .. املائي الدنيا صياحا كما تشائين ، فلن يسمعك أحد ..

فنهفت في صوت كالعويل :

- ان البستاني هنا ، وسوف يسمعي ..

ولم تكن قبضته القوية قد تركت كتفها بعد ..

فقال :

- لماذا لم تصيحي ؟

- لأنني .. لأنني أريد أن أتيح لك الفرصة كي تدعنا لنخرج من هنا

دون فضيحة .

وتطلعت إلى وجهه في لهفة عسى أن تجد اتوسلها واستنجادها بضيقه نتيجة مثمرة .

ولكنها لم ترتدلا في تلك الأسارير الشاحبة الجامدة ، كأنما قدت من الحجر الصلب .

وانما استطرد يقول :

- ألا تعلمين اننا في يوم الجمعة ، حيث يذهب كلاي لزيارة اخته ؟

ولو لم يكن ممسكا بها في قوة لهوت على الأرض ، فقد خارت قواها واحست بساقها لا تقويان على حملها .

وما لبث الحقد والفرع أن جعلوا الدماء تغلي في عروقها .
فصاحت في حنق بالغ .
- دعني اذهب ..

ولكن ما بكل كان يتابع حديثه كأنما لا يحس بوجودها :
- لقد اخبرني بذلك نفسه ، ولهذا جئت بك الليلة إلى هنا ..
فكان في بساطة تقريره لهذه الحقيقة ما أشاع الفرع إلى قلبها أكثر من
أي شيء قاله حتى الآن ..
كانت كل كلمة من عبارته الأخيرة أشبه بأصبع من الفولاذ البارد تقبض
على قلبها وتعضره عضراً ..

فقد دبر كل هذا ..
ورتب الأمر بحيث يكونان هنا بمفردهما حتى يمكنه أن ..
واشتدت قبضتها على المفتاح الحديدي في يدها ، وسبعت عينها إلى
الباب ، وحول الحجرة ، كميني لبؤة وقعت في الشرك ، تبعث عن منفذ
للنجاة منه ..

وكان السكون الشامل بينهما في غياهبه ..
فلا يسمع فيه إلا تردد انفاسها اللاهثة ..
ومع ذلك ، فقد التقطت أذناها الحادتان صوت الموسيقى ينبعث خافتاً
من مكان سحيق !
ذلك الصوت الذي طالما ابتغضته في الماضي .. أما الآن فما أحل وقعه
في مسامعها ؟
وتنهدت في ارتياح .

ثم غلصت من قبضته واندفعت نحو النافذة ، حيث انحنت وأشارت
بأصبعها صوب المعبد ، وهي تصيح كالجنونة :
- ان كلاي لم يذهب إلى منزل اخته الليلة .. انه هنا ! وما هو يعزف

على الأرغن الآن !

وانصت مايكل إلى الأنغام الخافتة وهي تسترق الخطى إلى الحجرة ،
وادرك أنها من وقع هازف ماهر ..

وانها هي الأنغام التي سمعتها « إيمان » من هنا مئات المرات فأحببتها
وسكنت نفسها إليها ..
ولكن هذا معناه ان كلاي في المعبد حقاً ، ولم يذهب لزيارة أخيه
كمادته ..

وكانت موارد ممتدة في صباحها وهي تقول :

- ما من احد غيره يقرب الأرغن ، وانك لن تستطيع معي أمراً ،
فسوف يفرغ من عزفه وشيكاً ويعود إلى هنا .
فمضى إلى النافذة وامسك بها من الخلف وهو يقول :
- لن يعود بالسرعة التي تظنينها .

فراحت تناضله مبتعدة عن النافذة ، وهي تغرس أظفارها في ذراعيه ،
وتصبح :

- انك تهذي كالجائنين !

فأرغمها على السكون ، وقتم :

- لقد اخبرتهم كيف احضرتك إلى المنزل ، وجعلتك تصنعين بنفسك
ما صنعتها بها .. قلت لهم ، سوف تموت الآن بنفس الطريقة التي قتلت
بها إيمان ..

فراحت تركله بقدميها الصغيرتين صائحة :

- كلا .. كلا دعني اذهب .

ولكنه اخذ ييها في غضب ، ويقول بصوت كقصف الرعد :

- تصوري انك إيمان ، وقد حطم الناس قلبك وافسد حياتك إلى الأبد ،
تصوري ذلك لحظة .

وكانت اسنان هوارد تصطك ذهراً وهي تشن كالذبذبة .
ولكنها أدركت فجأة ان ذلك الأرغن اللعين قد كف عن العزف ، فهتفت
في حشجة رهيبة :
- لقد كف الأرغن عن العزف ، وسوف يعود كلأي الآن .. سوف
يعود للتو ..

إلا أنه أجابها في هدوء وسكينة :
- سوف تموتين قبل ذلك ..
فتملصت منه وهرعت إلى النافذة حيث صاحبت صبيحة هائلة .
غير انه سرعان ما كان يجانبها وقد اطبق يده على فمها كي يكتم صوتها ،
بينما أمسك بها بيده الأخرى .

ولكنها انفلتت من بين أصابعه ، تاركة ممطفاً في يده ، واندفعت نحو
الباب ، وقبل أن تستطيع يدها المرتعدة أن تواج المفتاح في القفل ، كان
قد انقض عليها ثانية ..
فانطلقت تعدو في الحجرة بعيدة عنه ، وارتطمت بخوان كان موضوعاً
يحوار الفراش فسقط بما عليه من مصباح وكتب فوق الأرض
فكانت تناضل كوحش أحاط به الصائدون ..

ولم يكن مايكل يتوقع أن تكون على هذا القدر من الخفة والسرعة .
ففي محاضرتة صورها لاطلبة على انها لم تجد القوة على النضال والمقاومة .
اما الآن ، وهي في قبضته ، فقد كانت تعدو وتئنني كأنها وحش يفر
من مطارديه ..

وكانت لا تفنتاً تصيح في انين :
- انك مجنون خطر ، وان تستطيع ان تقتلني ، فلن تغفلت من
العقاب قط .
وكان شعرها المعقوص في عناية قد تهدلت خصلاته فوق ظهرها ، على حين

تمزق ثوبها في يده عندما امسك بها ليقيد حراكها .

وعادت تصيح في ذعر طاغ :

- لأنني لم أسئ إلى ايما قط ، لقد كذبت عليك آن ، وافهمتك الأمر على غير حقيقته ، فأنقذت لأذنبها مع انها السبب في كل ما حدث ، ان (آن) مجنونة كامها .

ولان وجهها متقلصاً بشعاً ، وقد اختلطت الأصابع فوقه ، وامتزجت بدموعها ، عندما استندت إلى الجدار متشبثة به وهي تعاود الصياح :

- لأنني لم أسئ إلى ايما .. لست انا التي فعلت بها ذلك ..

وانقلبت تتضرع في صوت يمزق نياط القلوب :

- ارجوك يا مايكل ، لا تقتلني ، هبني فرصة للحياة ، هلا استعدت هدوءك حتى نتحدث في الأمر ؟

ثم تخلصت من قبضته القوية ..

وأمرعت إلى النافذة المفتوحة صارخة :

- الي يا كلاي ! النجدة ! كلاي ! النجدة ..

فلحق بها مايكل وجذبها بعيداً عن النافذة ، وهو يقبض على عنقها ليكتم هذه الصرخات الوحشية ..

فأخذته الرعدة عندما لمس عنقها ..

وانتهزت الفرصة فأفلتت من يده وقبعت في أحد زوايا الحجرة وهي تناضله بكل ما بقي فيها من قوة ..

ولكنه راح يحرقها على الأرض عائداً بها إلى النافذة .

وامسك بعنقها من جديد ، فأرغمها على النهوض حتى انثنى ظهرها على قاعده النافذة ..

وعندئذ سمع صوت سقوط جسم ممدني على ارض الحديقة .

ولكن مايكل لم يكن يشعر بشيء سوى المقاومة الضعيفة المنبثقة من

الجسم الضئيل الذي بين يديه .
وكان العرق يتصبب من جبهته فيملاً عينيه ، بينما كان ضغط بسديه على
عنق هوارد قد رفع قدميهما عن الأرض شيئاً فشيئاً بحيث راحت تتأرجح فوق
قاعده النافذه .
وفي جهد اخير شدد مايكل الضغط ، وإذا بهما تنفلت من بين يديه ،
وتهوي في الفضاء .
وسمع صرخة مكتومة ..
فلما نظر إلى اسفل ، لم تكن كات اكثر من بقعة هامدة داكنة ، فوق
حجاره الفناء القائمة .

الفصل الثالث عشر

راخ ما بكل جويس يدير عينيه في الغرفة ذاهلاً مشدوهاً .
فقد كانت في حالة عنيفة من الفوضى ، وقد انقلب الأثاث ، وتناثرت
الستائر وأغطيت الفراش فوق الأرض ، وامتأ المكان بالكتب وقطع
المصباح المحطم .

إنها لم تعد حججه إيماناً الآن ..
وبوده أن يفر منها في أقرب وقت ، فالتقط ممطف هوارد الملقى يحوار
النافذة ، واسرع نحو الباب .
ولكنه وجد الباب موصداً !

آه ! طبعاً ، أنه هو الذي أوصده .
واخذ يبحث عن المفتاح فوق الأرض ، فلم يجد له أثراً .
فدس أصابعه المرتعدة في شعره المشعث المتهدل فوق جبهته ، واخذ
يعصر ذهنه ليذكر أين وضع المفتاح .

نعم . لقد أخذته ذات في وقت ما .
ومضى إلى النافذة فنظر إلى الأسفل ..
ها هي هوارد كومة من الحطام فوق الحجارة الباردة للفناء ..
لقد ماتت هوارد ، ولن تضايقه بعد الآن ..

ولكن اين المفتاح ؟

آه .. انه ليذكر انه سمع رنيناً حاداً في لحظة ما بعد ان كفت موسيقى
الأرغن عن العزف ..

فأدرك ان المفتاح ملقى الآن على الأرض بجانب هوارد .

واستقرت انظاره على الموقد ..

فأسرع يتناول محرك النار الحديدي الثقيل ، ويضيء محاولاً تحطيم
القفل ..

كان ينبغي ان يغادر هذه الغرفة في الحال ..

ولكن القفل العتيق كان متيناً ، فلم يتزعزع من موضعه .

فألقى مايكل المحرك من يده ثم انقض على الباب بكتفه ، محاولاً
فتحه عنوة ..

فكان يستجمع كل ذره من قوته في عضلاته ، وهو يرتقي على الباب
مره بعد الأخرى ، حتى تحطم الباب دفعة واحدة ، وسقط مايكل في
الردهة من شدة الاندفاع ..

وقنهد في ارتياح بالغ ..

ثم وقف برهة ، مرهف السمع ، وهو لا يزال يتأبط معطف
كات هوارد ..

وكان السكون والظلام يجمان على المنزل ..

فراح يتحسس سبيله فوق الدرج في حذر شديد حتى بلغ النافذة التي
دخل منها ، فتسلقها .

وكانت الحديقة مقفرة موحشة عندما مضى يدور حول المنزل بدافع
خفي ، لم يدرك كنهه وقتئذ ..

فلما بلغ القسم الخلفي ، الذي تشرف عليه نافذه إيما المفتوحة ، راح
يسير على العشب ، متنكباً المرات المرصوفة خشية ان يسمع صوت وقع

أقدام فوقها .

وكانت جثة هوارد مكومة حيث سقطت ا
فرقمها في خفة ، ولفها في المعطف ، ثم حملها عائداً بها إلى حيث توجد
سيارته ..

فكان لا يشعر بثقلها ، فكأنه يحمل المعطف خالياً .
وفيما هو يدور حول المنعطف ، وقف مكانه مصعوقاً بلا حراك ، فقد
طرق سمعه وقع أقدام تقترب نحوه ، فوق المر المرصوف .. وصوت
رجل يغني ؟

فأسرع ينحني بحمله ، مخفياً خلف ظلال خيمة من الزهر يحوار الطنف
الرخامي للشرفة .

فكان كلاي يرفع عقيرته بالغناء ملغماً بالسودة دينية ، وهو يسير في
خطى سرية نحو باب المنزل .

وما لبث أن فتحه واختفى بداخله
فما كاد مايكل يرى الباب يعلق ثانية حتى خرج من مكانه ، وأسرع
يعدو فوق العشب حتى بلغ السيارة .
فوضع الجثة فوق المقعد الخلفي ..

ثم تسلل إلى مقعد القيادة وأدار المحرك ، وما لبث أن اندفع إلى الأمام
راحلاً عن المكان إلى الأبد .

ولان الهواء يحرك أغصان الشجر في حفيف متتابع ، والطيور الليلية
تخلق فوق الزهور بعد أن خلت الحديقة ثانية والقمر في طريقه إلى المغرب ،
بينما أخذ الضباب الخفيف ينتشر ويمتد من ناحية التلال القريبة ..

وكان منزل إيمان ينهض في مكانه كمهد منذ مئات من السنين ، ساكناً
هادئاً ، حتى لتعجب ، إذ ترى نوافذه الأمامية موصدة ، وان قاطنيه
ينعمون بنوم هادئ متصل .

وفتح الباب الرئيسي دفعة واحدة ، وخرج منه كلاي يعدو ، مرتدياً قبعه ..

وراح يتطلع إلى الممر المؤدي إلى البوابة الخارجية ، فرأى الضوء الأحمر بمؤخرة السيارة ، في اللحظة التي كان فيها يختفي عند منعطف الطريق .

فندت عنه صبيحة دهشة حادة ..

ثم أسرع يعدو نحو المنزل ثانية ، حيث مضى قدماً إلى جهاز التليفون ..

وفي صوت يتهدج انفعالاً .. طلب إلى العامل أن يصله بمركز البوليس ..

* * *

وجد مايكل جويس نفسه يقود السيارة على غير هدى في هذه الطرق الريفية ، دون أن تكون لديه أقل فكرة عن الوجهة التي يذهب إليها .. وكان خائر الجسم ، منهوك القوى ، بعد ذلك الجهد العنيف الذي أنفقه في الساعات الأخيرة !

فكان يشعر بحاجة قصوى إلى النوم ، وفي الوقت نفسه كان يخامرهُ شعور غامض بالفوز والانتصار .

لقد قام بما أراد أن يقوم به ودبره ..

وقد انتقم لا يما ..

فمن العدل أن تموت كات كما ماتت إيمان ..

فالعين بالعين ، والسن بالسن ..

هذه هي العدالة ..
العدالة الأزلية القديمة ..
وهي أقدم عهداً ، واشد تبجيلاً من هذه القوانين الوضعية الحديثة التي
لا تسمح لك بالاقتصاص واخذ ثأرك بيدك .
فالوسيلة التي اتبعها أيسر منالاً ، واكثر انطباقاً على العدالة وأسرع اثرأ ،
وقد قال لطلبته :
إنها كانت جريمة دبرت في وعي كامل وعقل سليم ، ونفذت دون
أن تتدخلها ثغرة واحدة .
وتقلل في مكانه قلقلأ ..
فإنه لم يقدم لطلبته وصفاً كاملاً للقضية ، فلم يعلموا كيف كذبت عليه
كأت ، حتى في لحظاتها الأخيرة ، فأنكرت انها اساءت إلى إيمانك ، وكيف
فاضلته وقاومته ، بما جعله الآن خائر القوى منهوكة ..
لقد أغفل بعض التفاصيل التي سوف تعاوهم عند تحليل عقلية كأت
المنحرفة ..
بل انه يشعر انه أغفل شيئاً آخر .
والتفت وراه إلى المقعد الخلفي ..
وفجأة صفا ذهنه ، وسرت في بدنه قشعريرة باردة عندما صدمته الحقيقة
الكاملة لموقفه الآن ، وقبذت له في وضوح وجلاء .
فها هو - مايكل جويس - الطبيب الذائع الصيت بهارلي ستريت ،
واخصائي جراحة المخ المعروف .
ها هو يقود سيارته في طرق غير مألوفة لديه ، وفي غمرة الليل ،
ومعه جثة امرأة قتيل .
ولم يمد يفكر إلا في شيء واحد فقط ، هو ان يتخلص منها في
أقرب وقت ..

فهي لم تعد كات بعد ..
إنما هي حمل ثقيل خطر يجب أن يخفيه عن العيان ، وأن يلقي به في
أي مكان .

واربد وجهه إذ رأى جحافل الضباب تسد الطريق في وجهه .
وكان جانبا الطريق قد اختفيا عن ناظريه ..
ولم يعد أمامه سوى ظلمة حالكة كثيفة ، دون أن تخترقها الوار
السيارة الامامية .

فكانت ذرات الضباب قد ظلت زجاج السيارة امامه ، حتى لم
يستطع الرؤية ..
فأوقفها وأخرج منشفة صغيرة راح يمسح بها الزجاج لينظفه ، وفي خلال
ذلك يرهف السمع ، فلم يسمع سوى هدير المحرك المتتابع .

وفي عزم مفاجيء ، سار مايكل إلى مؤخر السيارة وراح ينظر إلى الجثة
المسجاة فوق المقعد الخلفي تحت المعطف ..
لقد كانت هذه فرصته الذهبية للخلاص منها ففتح الباب ، وشرع
يقوم بما اعتزمه ..

وما كادت يده تمس الفراء ، حتى انبعث خلفه زئير يصم الآذان ، تبعه
صوت احتكاك العجلات بالأرض وهي توقف فجاءه ..
فاستوى مايكل واقفاً ، وصفق باب السيارة في عنف ، ثم استدار
إلى الخلف ..

وإذا بضياء ساطع يبهر عينيه وينبعث من مصباحي سياره نقل كبيره
تقف خلف سيارته مباشرة ..

وهبط من السيارة جندي امريكي فارح الطول عريض المنكبين ، اقترب
منه ، وهو يضع يده في خاصرته ..
ثم يقول بحنقا :

- ألا تستطيع أن تتخير مكاناً أنسب من هذا للوقوف ؟
وكان مايكل واقف بجوار النافذة الخلفية لسيارته ليعجب الملعبد
الخلفي ..

فأجاب متلعثماً من رهبة المفاجأة :

- لقد وقفت لأنظف الزجاج الأمامي ، إذ لم اكن أستطيع الرؤية .
فرد الأمريكي :

- ومن ظننتي ؟ مرة تخترق أنظارها الظلام وترى على مبعده ؟
ثم ربت على كتفه في مرح ، وأردف :

- والآنت هل تعرف اين نحن يا صديقي العزيز ؟
وكان مايكل قد رأى لافتة في الطريق قبل أن تزداد كثافة الضباب ،
فقال :

- إننا في طريق بورتماونت الرئيسي ..

- حسناً .. شكراً لله ان عرفت هذا ، فذلك هو الطريق المفروض
أن أمضي فيه ؟

فانتظمت انفاس مايكل ثانية ، وعارده الاطمئنان ، فقال :

- يمكنني أن اصف لك طريقة الذهاب إلى هناك ..

فأجاب الأمريكي :

- كلا .. شكراً ، سوف أتبعك وكفى ..

فأسرع مايكل يقول :

- ولكنك لن تستطيع ذلك طويلاً .. فسوف اعرج على طريق

جانبي بعد قليل .

وكان يدعو الله في نفسه أن يجد منعطفاً في الطريق أمامه ا

- حسناً ، أتبعك إلى أن تصل إلى غايتك ، وما عليك إلا

أن تشير لي ..

ثم قفل راجعاً إلى سيارته ، فلم يجد مايكل مناصاً من العودة إلى
عجلة القيادة بدوره .

ومن ثم مضى في طريقه تتبعه الشاحنة ..
ولم يجد منعطفاً خلال ميلين قطعها ونفسه تطير شعاعاً بين الشك
واليقين ..

بين اليأس والأمل ..
ولكنه ، إذ كاد يقطع الرجاء نهائياً ، ورأى في ضوء المصابيح الامامية
ثغرة في الجانب الأيسر من الطريق ، ما لبث أن تبين أنها طريق جانبي ،
فدار بسيارته منعطفاً ..

ثم اشار بيده إلى سيارة النقل أن تقضي قدماً ، وأخرج رأسه من النافذة
فصاح بالأمريكي :

- سر أمامك في طريق مستقيم تصل إلى بورتسموت ..

- شكراً يا جورج .. إلى اللقاء ..

* * *

مضى مايكل في الطريق الضيق في ببطء وحذر ..
انه سوف يخرج الجثة من السيارة ، عندما يبتعد عن الطريق الرئيسي
بمسافة كافية ، ويتركها ..

يتركها في أي مكان يحده ..

فليس همه اين يضعها ، وانما المهم أن يتخلص منها على أي وجه ، في
حقل مهجور ، او تحت كومة من المشب الجاف ، وسوف يكون الضباب
خير عون له ..

فلن يراه أحد البتة ..
وعندئذ راح يتفرس في معالم للطريق حواليه ، ليرى ان كان قريباً من
احدى القرى ، ام يسير بين الحقول المكشوفة .
وفجأة ظهر امامه شبح يقف في عرض الطريق ، ويلوح بيده مشيراً
له بالوقوف !
فدار مايكل بالسيارة حوله ليتقي الاصطدام به ..
ثم اوقفها دفعة واحدة !
وبعد لحظة ، رأى كهلاً يقف بجوار النافذة ويقول له :
- أليس في وسعك أن تساعدني قليلاً ؟ لقد انحرفت عن الطريق فغاصت
عجلات سيارتي في احدى الحفر .
وكان مايكل يصغي إلى ذلك الصوت العميق ، واللهجة المنقطة ، وقد
تملكه شعور مريب بالخيبة واليأس .
ولم يكن يجرؤ على النظر خلفه ، ولكنه كان يعلم ان جثة كانت لم تكن
مشطاة حتى بمعطف الفراء .
ولو أن ذلك الغريب سرحت أنظاره إلى المقعد الخلفي دون قصد
لرأى الجثة حتماً ..
وعندئذ اجاب في اقتضاب :
- انني شديد الأسف إذ لا استطيع الوقوف الآن .. انني في عجلة
شديدة ..
- لملك اذن تتفضل بحملي إلى منزلي ، فهو لا يبعد عنا إلا زهاء نصف
ميل ، حتى استطيع استخدام التليفون .
ورأى مايكل ان ينتحل المذر الذي كان دائماً مقبولاً .
فقال في اقتضاب :
- شد ما يؤسفني ألا يمكنني ذلك ، انني في طريقى إلى حالة عاجلة .

ولم يتحرك الرجل من مكانه ، بل قال :

- هل انت طبيب ؟

فأجاب مايكل :

- نعم .. ويجب ان أسرع ..

فابتسم الكهل وقال :

- حسناً .. انني سعيد الحظ إذن ، ان اسمي فاريل - الدكتور فاريل

ولي عيادة في هذه الجهة ، وهناك طفلة أصيبت بجراح شديدة تنتظر ذهابي

لرؤيتها .. ولكن الى اين انت ذاهب ؟

إلى أين ؟ اجل الى أين ؟

وتتم مايكل :

- الى نهاية هذا الطريق ؟

وكأنما وثق الدكتور فاريل من معونة زميله ..

فقال كمن يقرر حقيقة واقعة :

- حسناً .. لعله يحسن أن أترك سيارتي وامضي معك إلى اقرب مكان

أجد فيه جهازاً تليفونيا .

وراقبه مايكل ، مكتوف الأيدي لا حيلة له في الامر ، بينما كان يدور

خلف السيارة ، ويأتي إلى الباب المفتوح له .

ولم يتسع له الوقت لاكثر من نظرة واحدة بلقيها خلفه ، قبل ان يضع

الدكتور فاريل قدمه على سلم السيارة ..

ولكنه إذ انحنى ليدخل ، خطرت له فكره طارئة ..

فقال :

- آه اللحظة واحدة ، ينبغي ان احضر الحقيبة من سيارتي .

واسرع يختفي بين الضباب ..

فاستدار مايكل الى الخلف ورفع الجثة الى آخر المقعد ، ثم طرح

- فوقها معطف الفراء محاولاً اخفاؤها عن العيان
- وعاد الدكتور فاريل ..
- فجلس بجانبه ووضع الحقيبة تحت قدميه ..
- فانطلق مايكل بالسيارة وهو يقول :
- إلى أين تريد ان اوصلك ؟
- إلى أي مدى ستمضي انت ؟
- ترى ما هو الجواب على مثل هذا السؤال ؟ وكيف يذكر اسم مكان قريب مناسب من هنا ؟
- وأخيراً قال :
- لست واثقاً تماماً من بعد المكان عن هنا ..
- فسأل الدكتور فاريل :
- انني أعرف المنطقة جيداً .. وقد يكون في رسمي أن أعاونك !
- فأجاب مايكل :
- كلا .. إنه مكان بعيد ، شكراً لك ؟
- آه ! لو أن هذا الرجل يكف عن أسئلته ، لأن في وسعه ان يفكر في الأمر ..
- ولكن الكهل رمقه في حدة من وراء عويناته .
- ثم قال :
- هل أنت من لندن ؟
- نعم ..
- ألك خبرة بكسور الجمجمة ؟
- فابتسم مايكل ..
- انه آمن مطمئن طالما تحدث هذا الرجل عن المهنة ..

ثم قال :

- إلى حد ما ..

فصفر الدكتور فاريل بشفتيه ، وقال :

- لقد كان في وسعي أن أنشد معونتك الليلة إذن ، فلماذا أتيت متأخراً ؟

- في أي شيء كنت تريد معونتي ؟

- تلك الطفلة التي كنت أخبرك عنها ؟

- هل أصيبت في أحد حوادث الطريق ؟

فأجاب الدكتور فاريل :

- نعم .. لقد صدمت سيارة نقل إحدى السيارات الخاصة في الضباب .. وكانت الطفلة تجلس في المقعد الخلفي ، فتلقت أشد ما في الصدمة من عنف .. وهي الآن غائبة عن الوعي ، والدماء تنزف من قطع أذنها اليمنى .. وفي رأيي أنها أصيبت بنزيف في الشريان الأوسط ؟

فسأله مايكل :

- هل استعادت شعورها في وقت ما ؟

- نعم . بعض الوقت ، فكانت تبدو في حالة طيبة ، ثم غشي عليها ثانية ، وهذا ما دلني على أنها في خطر شديد ؟ واستيقظت غريزة المهنة في نفس مايكل ، وأدرك أن فرصة نجاة الطفلة ضئيلة تماماً ، فقال :

- ربما كنت على حق ..

وخيم فوقها الصمت برهة ..

ثم هتف الدكتور فاريل :

- مهلاً . هذا هو الطريق ، هل يمكنك أن توصاني إلى هناك ؟

- نعم ..

فقال فاريل وهو يطلق ضحكة عالية :

- حق أحضر الوفاة على الأقل ؟

ولكن مايكل قال معقبا :

- لقد رأيت حالات خارقة نجا منها المصابون بكسور في الجمجمة !

فقال الدكتور فاريل في جفاء :

- لقد رأينا جيما مثل هذه الخوارق ، ولكني لا أوقعها قط ، ولا

أحسب لها حسابا ، كما اني لا ابالي بهذا الأمر او ذلك .

فقال مايكل :

- اما انا فأحسبني ابالي بذلك كثيراً ، إنني دائما اكره أن يموت

أحد مرضاي .

فزجر الكهل ساخراً من حماسه وقلة خبرته ، وقال :

- إن ذلك نوع من العاطفة الرقيقة سوف تتغلب عليه عندما تقتل من

المرضى مثلما قتلت ؟

- لست اظن ذلك .. فإننا نشعر بكثير من القبضة ، عندما

نحاول انقاذهم ..

فقال الدكتور فاريل :

- إن الأمر إذا - في حالتك هذه - لا يعدو مجرد الزهو والخيلاء

أما الحقيقة فغير ذلك اينما نظرت لها ، ليس لدى الانسان أي شعور

رقيق ، ولكنه فقط يظن ان لديه هذا ..

ثم مضى يتابع القول في سخرية وهو يمن النظر خلال الضباب :

- وان الناس دائماً يفعلون اشياء يبررونها بدوافع كاذبة غير صحيحة ،

ولو انهم واجهوا الحقائق ، لأدركوا ان الباعث الحقيقي لما يفعلونه ، إنما

هو الافر والأفانية ، او العادة ، او الفقر ..

- إن الحياة لا تساوي قلامة ظفر إذا نظر المرء إليها من هذه
الوجهة فقط .

فقهه الطبيب الكهل ، وقال :
- إنها كذلك حقاً ، ولكنني أخذت نصيبي من الاستمتاع بها
كاملاً .. ها قد وصلنا .. الآن ، سوف نجد في انتظارنا موقفاً
اليماً مع الأم ؟
فسأل مايكل :
- كم عمر الفتاة ؟

- إنها مجرد طفلة ، في الثانية عشر ..
فردد مايكل هذه العبارة في ذهن شارد :
- في الثانية عشر ، إنها في عمر آن ..
فنظر إليه الدكتور فاريل ، وقال :
- آه ! ألك ابنة ؟
- كلا .

فلما وقفت السيارة ..
قال الدكتور فاريل :
- احسب انني لن استطيع اغراءك على الدخول والاشتراك معي في
فحص المصابة ، فإن اهل المريض يراخون دائماً إذا وجدوا رأياً ثانياً
يقول بأنه ليس ثمة أمل في الشفاء ..

وكان في صوته من قلة الاكترات ما أثار في نفس مايكل نوعاً من
الحنق والغضب .

وعلى الرغم من انه لم يكن خيالياً ..
إلا ان برود هذا الطبيب وتشاؤمه - او لعل مذهبه الواقعي ،
كما قال - قد أشعل مراجل الغضب في نفسه ، واحس بالراء والشفقة

نحو مرضاه .

فقال في برود :

- ربما كان هناك امل في الشفاء .. فالطفلة على قيد الحياة ،
اليس كذلك ؟

فهز الآخر كتفيه .

ثم غادر السيارة وحقيبته في يده ا

وتردد ما بكل لحظة خاطفة ..

وما لبث ان تبعه ..

الفصل الرابع عشر

راى مايكل في الظلام صفاً من اكواخ العمال الصغيرة المشيدة بالآجر ،
أمامها حديقة صغيرة وسياج خشبي منخفض ، فتح الدكتور فاريل أحد
أبوابه ..

ثم مضى في الممر الضيق المؤدي إلى المنزل ..
وبينما كان مايكل يسير في أثره ، ظهر أحد رجال الشرطة قادماً
على دراجته ، متجهاً نحوهم .
فما كاد مايكل يراه حتى جمد في مكانه بلا حراك ، وقد أحس برغبة
جنونية في أن يطير عائداً إلى سيارته ..
ولكن الشرطي لم يعرفه التفائلاً ، بل حيا الدكتور فاريل ، وأعرب
عن أسفه لهذا الحادث المروع ، وفي الوقت نفسه فتح باب المنزل وبدأت
منه سيدة متقدمة العمر ..

وقالت لفاريل في لهفة :

— يا لله ! لقد حسبنا انك لن تعود يا دكتور .
ومضت أمامهم إلى ردهة صغيرة رطبة ، انتشر الضباب في أرجائها
فظلل المقاعد والأريكة ، وهي كل الاثاث الذي كان بها ..
فقال الدكتور فاريل :

.. لقد فضلت أن أحضر زميلاً لي للتبادل الرأي ممساً يا مسز روبرنس .. الدكتور ..

وسكت منتظراً أن يذكر الغريب اسمه .

ولكن مايكل قال في جفاء :

- أين المريضة ؟

وعندئذ فتح باب إحدى الحجرات بفتحة ، وحرجت منه سيدة شابة ترتدي ثوباً من الصوف .

فاندفعت نحو فاريل صائحة :

- أواه يا دكتور .. إنها لا تزال بغير حراك ، وقد نقلناها إلى هنا ..

وأدرك مايكل أنها والدة الطفلة المصابة .

كما نظر إلى حيث أشارت فرأى المظهى وفي وسطه مائدة صغيرة رقدت عليها الطفلة .

فمضى نحوها وبدأ يفحصها ..

وكان تنفسها ضعيفاً غير منتظم ، وفيما عدا ذلك فلم يكن يبدو عليها شيء من مظاهر الحياة ..

ولحق به الآخرون ، فلم يشعر مايكل بوجودهم ، إذ كان منصرفاً إلى فحصه ، وهو يرقع غرائز الطفلة في رفق ويمن النظر في الجرح العميق الذي كان فوق أذنها اليمنى .

ثم فتح اجفانها المغمضة ، وأشعل قداحة أمام عينيها ، ولكنها ظلت جامدين لا تتحركان .

وعاد يرفع رأسها وفحص أعصاب العنق .

ثم اعصاب الذراعين ، حيث وجد الأيسر أكثر رخاوة من الأيمن .

وأخيراً .. جعل يجتبر الانعكاس العصبي لقدميها ، في فقرات

حادثة مريعة ..

ولم يكن يسمع في الحجرة سوى دقات ساعة المدفأة ، وتنفس الطفلة المضطرب ..

ولاحظ مايكل ان الحجرة دافئة ، وان المصباح الكهربائي المكشوف المعلق فوق المائدة تنصب أشعته ساطعة قوية فوق وجه المصابة الشاحب .

فنهض من مخدائه قائلاً لفاريل :

.. انك على حق ، فهي مصابة بنزف من الشريان الأوسط .

ولم تكن لهذه الكلمات أي معنى لدى الأم ..

ولكنها كانت تشعر بشيء من الطمأنينة وهي ترى مظهره وحركاته القوية التي توحي بالثقة ..

فسأله ضارعة :

— هل ستنجو وتعيش ؟

فربت مايكل على كتفها في برق ..

ثم تبادل النظر مع الطبيب قائلاً :

— سوف أجري لها الجراحة الآن ..

وشفق فاريل ..

فلم يحبه مايكل ، وإنما تحول إلى مسز روبرتس قائلاً :

— إنني في حاجة إلى وعاء كبير لأعقم ادواتي ، وكذلك بعض الملاءات

النظيفة ، فإن ممي كل ما يلزمي غير ذلك ..

فأسرعت خلفه وهو يعود إلى الردهة ، ملقياً بتعليقاته .

ونظر الدكتور فاريل إلى الطفلة المسجاة .

ثم قطب وجهه ..

فإذا كان هذا الأحق الشاب يريد أن يقدم ، مدفوعاً بمألفته ، على

مثل هذه المخاطرة ، فعليه أن يصدر أوامره كما يشاء .

ولكن مضى وقت طويل منذ أن كان الدكتور فاريل يعامل كطبيب تحت التمرين .
وكان مايكل قد مضى إلى سيارته ، فأخرج حقائب الادوات والمعدات الجراحية ..
كان فكره الآن مركزاً في الطفلة المصابة ، ولم يحل بخاطره قط أي شيء عما كان داخل السيارة فوق المقعد الخلفي .

وتناول الدكتور فاريل حقيبة ثقيلة وهو يقول في وقار :
- اصغ اليّ .. إن الأمر لا يستحق المجازفة ، فلو ماتت اثناء العملية ، أو كنتيجة لها فسوف يكون هناك تحقيق ، وانك لا تدري قط كيف تنتهي مثل هذه الأمور .
- ليس في الأمر مجازفة ما ، فسوف تموت الطفلة خلال نصف ساعة ، وإن يمكن نقلها إلى المستشفى في هذه الفترة ، بل سوف تموت حقاً فعلينا ان نحاول انقاذها بهذه الجراحة قبل ان يحدث ذلك .
- ولكن هذا من عمل اخصائي متمرس ، ولست ازعج لنفسي العلم بهذه الجراحة ، ولذلك ان أمد يدي فيها .
فقال مايكل خلال شفطيه المطبقتين :

- سوف تكون على ما يرام ..
وبقي الشرطي مع الأم ومسر روبرتس في الردهة يرقبون باب المطبخ الذي أغلق في احكام دونهم .
أما في داخله فقد كانت معدات الجراحة قد تمت ، وخلع مايكل معطفه وثنى أكمام قميصه ..

ثم دس يديه في قفاز من المطاط ..
على حين كان كل من الطبيبين قد وضع على وجهه قناعاً أبيض .
وقد ثبت مايكل على جبهته ذلك المصباح القوي الذي يضمه

الجراحون فوق جباههم .
 وكانت المائدة التي رصت عليها معدات الجراحة منقطعة أبيض ..
 وكذلك كانت الطفلة ايضاً ، مختفية تحت أغطية بيضاء لا يظهر منها سوى رأسها !
 ووضع الدكتور فارييل اوعية الماء الساخن وأحواض الصيني ،
 جاهزة للاستعمال ..
 ثم نظر إلى الجراح ..
 وما لبث ان دس طرف رباطه رقبته في صدر قيصره ، ثم قاله
 الأداء الأولى !
 وانحنى مايكل وبدأ العمل في مزرعة وحزم .
 كانت عملية دقيقة معقدة ..
 وكان يعمل فيها في خفة غريبة ، غافلاً عن كل شيء سوى تلك
 الاعصاب والخلايا الحية للمخ الذي يعمل على انقاذها .
 وكان الدكتور فارييل يقف عند مرفقه ، يناوله أداء بعد الأخرى ،
 وينقل الاوعية والاواني المستعملة في شعور متزايد بالاحترام والتقدير .
 فلم يكن هذا الشاب طبيباً حدثاً متحمساً التقطه في الطريق وسط
 الضباب ..
 كلا ..
 ان هذا الرجل يعرف ما يفعله تماماً ، وسوف يكون من دواعي
 الاسف ، أن يحدث شيء غير متوقع وينسطر إلى مراجعة التحقيق معه ،
 ولكنه قد انذره !
 وإذا ما علمت نقابة الأطباء يوماً بما حدث فسوف يقول في ضمير
 مطمئن :

- انه قد اعترض في قوره على هذه المخاطر .
وكان مايكل يستل كل ذره من قوته وهو يقوم بعمله ، ويناضل الموت
والوقت معا .

فقد استغرقت الجراحة وقتا طويلا ، وهو يخشى ان تموت الفتاة وهي
ما زالت تحت المخدر ..

فقد كان تنفسها المضطرب يزداد خفوتا ، وينبغي ان تعطى منهم-أ
للقلب في الحال ، فقال :

- إن التنفس يوشك ان يقف ، امعك شيء من الكوارمين ؟

فقال فاريل :

- انني لا أحله قط .

وكانت عينا مايكل مركزتين على الطفلة عندما قال :

- إن هناك بعضا منه في سيارتي ، في حقيبة صغيره بالجيب
الامامي .

فوضع فاريل ما بيده على المائدة وقال :

- سوف اذهب لاحضارها .

وما كاد الباب يوصد خلفه ، حتى وجدت يدا مايكل في الفضاء .

وخيل اليه ان القناع الذي يغطي فيه يوشك ان يخنقه ، عندما تبين
حقيقة ما فعله .

لقد ارسل فاريل إلى السيارة ليجد كات ، ليجد الجثة التي سوف تقوم
إلى المشقة !

وارتعد مايكل ، وانحنى رأسه ..

وعندئذ انعكست أشعة المصباح من فوق جبهته على رأس الطفلة ، وفي
الحال عاد إلى العمل ثانية ..

فهذه الطفلة تأتي في المقام الأول ، اما شأنه مع كات فسينظر فيه

فيا بعد ..
وطالت غيبة فاريل ، فيا خيل له كثيراً ، وكان العرق يتصبب غزيراً
من وجهه وجسمه كله !
على حين أوشك تنفس الطفلة أن يخبو إلى الأبد ..
يا لله ، ما لدقات هذه الساعة قد ازدادت ارتفاعاً ؟
ولماذا لم يعد هذا الأحق بأنابيب الكورامين ؟
وما يهمه ما في السيارة ، متى كانت حياة الطفلة تستل منها ؟
وتتم مايكل بين شفتيه ..
ثم تناول أداة أخرى ..
والواقع انه مضت دقيقتان ، قبل أن يعود الدكتور فاريل مسرعاً ،
وفي يده علبة معدنية صغيرة .
وكان وجهه مرعباً شديداً الامتقاع !
ولكن مايكل لم ير سوى نظرة الفزع الرهيب التي ارتسمت في عينيه
فوق القناع ..
وقابل الطبيب نظراته بثبات ..
وقال في هدوء بالغ :
- إنها لم تكن في الجنب الأمامي ، ولكني وجدتها ؟
إذن فقد علم كل شيء ..
وعندئذ تنهد مايكل في ارتياح وقد انجذب عن صدره حمل ثقيل ، ثم
جذب الحقنة من يده وهو يصيح :
- أسرع ؟
فلما حقنت الطفلة بالدواء المنبه ، عاد تنفسها يتردد في انتظام ، ومرعان
ما خاط مايكل الجرح ..
ثم طلب الضمادات ..

ونارله الدكتور فاريل إياها في صمت
وفي دهشة جامدة راح يرقب هاتين البدين الثابتتين القويتين وهما تلفان
الضماطات والاربطة حول الرأس الصغير ..

ثم تثبتانهما في موضعها الأخير ، وأزيمحت الاغطية إلى الخلف ، وكانت
الطفلة على قيد الحياة ؟

وانتصب الرجلان في وقفتهما ، ثم رفعوا الاقنعة ونزعا القفايزات ، وراحا
ينظفان الآلات والاجهزة التي استخدمهما ، ومضيا معاً إلى المغسل بفسلان
أيديهما في صداقة وود .

بينما انتظر مايكل صامتاً حتى ينسلكم الدكتور فاريل .
واخيراً قال الكهل وفي صوته رنة اعجاب وتقدير :
- لقد قمت بعمل بارع ..

فقال مايكل وهو يحفف يديه ومرفقيه في إحدى المناشف :
- أرجو ان يكون الأمر كذلك ؟

- أظنك اخصائياً في هذه الجراحة ؟

- نعم .. واحسب الآن انه ستكون للطفلة فرصة قوية للحياة ؟

وكان فاريل يتأمل قطرات الماء المتساقطة من أصابعه في تراح ..
عندما قال :

- لا ريب أن عملك هذا يوحى اليك بالشعور بأنك قادر على التحكم
في مصائر الناس .

فسأله مايكل في دهشة :

- هل تشعر أنت بذلك عندما تنقذ مريضاً من الموت ؟

فأجاب الطبيب المجوز :

- كلا بلا شك ، ولكنني أحسارل أن أجدد شعورك أنت ، انني قد

يسرني أن تشفى الفتاة ، لما في ذلك من فوطيد سمعي الطبية ، ولكن فيما

عدا ذلك فإن الأمر سواء لدي ، ان تشفى او تموت ..

وكان فاريل يرمق الاسارير المنتظمة ، وذلك الجبين المرتفع الذي يدل على ذكاء خارق .

بينما كان مايكل يرتدي سترة ، وهو يفكر أنه مهما يكن من أمر فلم تكن الاثرة او الطمع في الربح الشخصي هما اللذان دفعا هذا الرجل إلى التوقف وانقاذ طفله صغيرة من الموت ، بينما يعرضه ذلك إلى اكتشاف جريمته حتماً ..

لما الدافع له على ذلك يا ترى ؟

أهو التفكير عن ذنبه ؟

أتراه بعد أن قضى على حياة تلك المرأة ، شعر بأنه يجب عليه أن ينقذ حياة أخرى بدلها ؟

أم انها مجرد استجابة سريعة لواجب المهنة عند الطبيب ؟

انه يبدو كما لو كان قد أقسم بين المهنة للتو واللحظة ، أم لعلها كبرياؤه وزهوه واعتزازه بمقدرته وكفاءته .

كلا .. إن الامر في نظر فاريل أكثر من ذلك بكثير ، انه جنون العظمة ؟

ولكن من ناحية خاصة ، فبعض المصابين به يحسبون من انفسهم باطره وملوكاً ؟ ولكن هذا الرجل ، هذا الطبيب المبقرى ، كان من اولئك الذين يعتقدون في قدرتهم على محاكاة الالهة فى تحكها في مصائر البشر ، وتقرير حياه هذا وموت ذاك ..

نعم . إنه من هذا الطراز ، وما أشد خطر مثل هؤلاء ؟

واجاب مايكل على ملاحظة فاريل الاخيره قائلاً :

-- اتظن ان كل انسان غيرك يفكر مثل هذا التفكير ؟

فهز فاريل رأسه في اسى وقال :

- إلا أنت ، انفي لا اتكلم عن الشواذ ، بل عن الرجال العاديين ، ذوي العقول السليمة ؟

والقى نظرة سريمة على وجه الجراح ، وقد قصلب حتى غدا كأنما نقش من الحجر الصلب ، ثم استطرد :

- دعني اقولها لك كلمة صريحة ، إن الوعاء الذي نستقي منه نحن معشر الناس الطبيعيين ، الخبرة والمعرفة ، واعني عقولنا ، هو من مادة متينة قوية لا تتعطم قط ، اما الآخرون ، مثلك ، فإن لديهم أشبه بقدرج من البللور النفيس الذي لا يلبث رغم علو قيمته ان يتعطم في يسر وسهولة ، وللوهلة الاولى ، وفي هذه الحالة فإن من الخير للمجتمع ان يلقي به بعيداً إلى غير رجعة ، بدلاً من أن يبقى حطاماً مقلوباً على أحد الارفف ، يهدد الناس جميعاً بالخطر ..

وكانت كلمات الطبيب الاخيره زاخره بالمعاني التي لم تغب عن فهم جويس وكان في انتظاره لحكم هذا الرجل المعجوز ، الذي يعلم انه سيكون عميق الاثر في حياته كلها ، قد قدر احتمالات كثيرة ، غير ان احدها ليس من نوع النتيجة التي وصل اليها الدكتور فاريل الآن ، ومع ذلك فقد قال الرجل ما قاله دون ان تلم نبرات صوته على انه قضى عليه بالموت .. بأن « يلقي به بعيداً إلى غير رجعة » ، بل كان كأنما يقرر حقيقة واقعة ليمة ..

وأجاب الطبيب جويس في شيء من الترفع :

- انفي لا اوافق على الصورة التي رسمتها الآن ، فإن الطبيب وهو يمالج حالة معينة ويصل بمريضه إلى الشفاء او الى الموت ، فإنما يفعل ذلك في حياد اعمى ، دون ان يدخل في تقديره هل يستحق هذا المريض الحياة او الموت ، أو يستخدم شعوره بالعدالة ، اما الذي فعلته اليوم ، وأنت تعلم عن أي شيء أتكلم ، فقد كان عدلاً ، كان يقظة العدالة في نفس الطبيب ، بعد طول سباتها خلال اعوام طويلة من مزاولة المهنة ، لقد تجردت اليوم

من شعور الطبيب ، وارتدبت شعار القاضي ، فأجريت العدالة كما ينبغي
أن تجري ..

فساد الصمت لحظة طويلة كان فاريل خلالها يحده به بنظرة متفرسة ،
ومالبت أن تناول سترته فارتداهما وهو يقول بغير اكتراث :

- إنه جنون العظمة ، لقد كان تشخيصي صحيحاً ، فأنت مجنون !
وفي تلك اللحظة تصلب جسم مايكل ، فقد بلغ مسمعها خلاب الباب
المغلق ، صوت واضح النبرات يقول :

- من هو صاحب السيارة التي تقف في الخارج ؟
وكان فاريل هو الذي رثب إلى الباب ففتحه في حذر .
وإذا به يرى شرطياً من راكبي الموتوسيكلات ، يتحدث إلى الجالسين
في الردهة .

على حين كانت الأم ، ومسز روبرتس جالستين في صبر واستسلام ،
تنتظر فتح الباب ومعرفة ما تم للطفلة ؟

وسمع فاريل وراءه صوت مزلاج الباب الخلفي للمطبخ يفتح ..
فلما أدار رأسه قليلاً ..

لقى نفسه وحيداً ..

وكان في قرارة نفسه بالغ الإعجاب والتقدير للغريب الراحل .
فغمغم يقول في أسى :

- ما قد قضى جراح عبقري !

ثم ابتسم راضياً ، وفتح باب الردهة على سمته !
وعندئذ اندفعت الأم نحو المائدة التي ترقد عليها ابنتها ، وما لبثت
أن قالت :

- إنها أحسن حالاً يا دكتور ، اليس كذلك ؟

- بلى .. فقد زال الخطر عنها ؟

- لقد كان عظيماً ..
- من هو ؟
- زميلك الطبيب ، ترى ما اسمه ؟ انني لا اعرفه ؟
- آه ! هو ؟ ولا أنا ..
- سوف اذهب إلى بيته لشكره ، وأين يقيم ؟
- لست أدري بالمثل .
- وكان الشرطي يتقدم منه ، ومفكرته في يده ، قائلاً :
- هل أنت صاحب السيارة التي تقف بالخارج ؟
- كلا ..
- من هو صاحبها إذن ؟
- فرمقه الطبيب في استياء وقال :
- لست أدري ، لماذا ؟
- لقد اوقفها في الطريق دون ان يضيء مصباحها الخلفي ..
- ثم هتف :
- حتى كدت ارتطم بها ..
- فبدا الارتياح في عيني فاريل :
- آه ! أهذا كل شيء ؟

* * *

راح مايكل جويس يقود سيارته في الطريق الريفية المظفرة ، دون أن
تخامر له أية فكرة للفرار ، فقد نسي ذلك الشيء الذي لا يزال ملقى فوق
المعد الخلفي
ولم تعد به ذرة من الخوف من البوليس ، أو من عواقب ما أقدمت يداه ،

وإنما كان عقله منصرفاً إلى دراسة مسلكه وتصرفه في الأمر من مبدئه إلى نهايته .

وكان لا يفتأ يستعرضه مرة بعد مرة ، في نظرة المتفرج المحايد الذي يريد ان يصدر قراراً عادلاً ..

فكان في كل مرة يصل إلى نتيجة واحدة ، لقد رسم خطة هذه الجريمة وارتيكيبها في رباطة جأش وسكينة غريبة .
والقتل في حد ذاته يخرج القاتل من حظيرة القانون ، ومن حظيرة الأفراد الطبيعيين ، ولذلك فإن مجرد ارتكابك هذه الجريمة ، مهما كانت ذواقها ، يخرجك من تلك الحظيرة ، ويدل على أنك شخص منحرف العقل ، على أنك شخص مجنون .

ولكنه لا يستطيع أن يقر ذلك ، انه لم يكن مجنوناً ، لقد كان كامل كأبي شخص آخر ، وقد دلل على ذلك منذ قليل ، أفهل كان في وسعه ان يجزئ تلك الجراحة الخطيرة لو كان مجنوناً حقاً ؟
وعاد وجه الطالب في قاعة المحاضرات ، يترأى له وهو يقول :
« انه ككل المصابين مجنون العظيمة .. » ثم قوله : « هل كان في مستشفى الجانين ؟ » .

وتلاه وجه كات المتخلص وقد علاه الفزع ، وهي تصيح : « انك لن تنجو من المواقب قط ، إنك مجنون خطر .. »
وتتابعت الوجوه أمامه ، إيما والدكتور فاريل وكات ، بل انه ليستطيع ان يسمع اصواتهم ، كانت إيما حزينة وتقول :

« أراء يا مايكل ! لماذا قدر علينا أن يحدث لنا ذلك ؟ لقد حاولت أن أقنع نفسي بأن شيئاً سوف يحدث فلتستقيم به الأمور ، ولو اني كنت واثقة من أن شيئاً كهذا لن يحدث قط .. »
كلا . لقد اختلط الأمر عليه ، فإن إيما لم تقل هذه العبارة ، وإنما هو

الذي قالها ..

وقد قال الدكتور فاريل :

« من الخير للمجتمع أن يلقي بالقدح بعيداً إلى غير رجعة بدلاً من أن يبقى حطاماً مغلوباً على أحد الأرقف ، يهدد الناس جميعاً بالخطر .. »

وقالت كات :

- « إنك تهذي كالمجانين ، بل انت مجنون . »

هذه الكلمات لا تزال تدوي في أذنيه ، فقد ظلت ذات ترددها طويلاً ،
وهي لا تزال تقبّده في مسامحه مع هدير المحرك المتصل ..

وهي الآن لا تصدر من كات فقط ، وإنما تنبعث من الأصوات المختلفة التي
لا حصر لها ، فكان كل منها يهتف به : « انت مجنون .. انت مجنون ... »

وسرت الرعدة في بدنه ، انهم جميعاً على حق .

وهو إذ يقتنع أخيراً بذلك ، وبأنه مجنون حقاً ..

فإن يشمر لحظة براحة وسلام عيقين ، كالتي شعر بها ذات مرة

مع إيفا ..

وأوقف السيارة ..

فكفت الأصوات عن الهتاف ..

وكان السكون شاملاً في تلك القفرة ، فوق صخور الشاطئ ، الجرداء ،

المختفية خلف غلاثل الضباب ..

أما فوق البحر ، بعيداً عن الشاطئ ، ففسد انقشع الضباب وبدأت

الأمواج تتألق في ضوء القمر وهي تتابع في خطى وثيدة .

ووقف على حافة الشاطئ ، يراقب الأمواج وهي تتلاطم تحتها على بعد

سحيق .

وكان يحيد راحة بالغة في رؤيتها ، وجماع صوت ارتطامها بالصخور ،

رتيباً متتابعاً ...

راحة فهم مدلولها ومعناها ، ورحب بها وثاق اليها ..
وترنح في موقفه ، فحاول ان يعتدل ويثبت قدميه ..
ولكنه ما لبث ان كف عن المحاولة ، واختلطت السماء والامواج امام
ناظريه ، واندفع الهواء يرطب وجهه بنسيماته الباردة ..

وكان المحيط يرتفع صوبه ..
وعندئذ فتح ذراعيه كأنما يهم بمناقه ..
وأطبقت المياه ثانية فوق رأسه ..
وعاد الشاطئ قفراً موحشاً من جديد ..

- تمت -

